الفصل الخامس

دور حكام الأقاليم فى
بعض الجوانب الحضارية

١- فى الحياة الاقتصادية.

٢- فى الحياة الاجتماعية.

٣- فى الحياة العلمية والعمرانية.

obeikandl.com

الفصل الخامس
دور حكام الأقاليم فى بعض الجوانب الحضارية

مقدمة:-

إذا كان حكام الأقاليم فى مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين قد شاركوا بدور لا يستهان به فى الحياة السياسية، فهم أيضا قد شاركوا بدور فعال فى العديد من الجوانب الحضارية الأخرى، خاصة مع اتصالهم المباشر بالرعية، وإشرافهم على الكثير من مصالحها وشئونها، مما مكنهم من ترك بصماتهم على العديد من الجوانب الحضارية آنذاك وكان من الجوانب التى شارك فيها هؤلاء :- الاقتصاد بكافة فروعه من زراعة وصناعة وتجارة. كذلك الحياة الاجتماعية ، تلك التى قاموا فيها بدور فعال مس حياة الرعية بكل طوائفها، بل شمل حتى أهل الذمة . هذا فضلا عن الناحية العلمية والعمرانية، وقد ظهرت آثار هذا واضحة جلية فيما حوته الأقطار من علماء وأدباء، وما خلفه العصر من مؤلفات جليلة شملت كافة فروع العلم، هذا فضلا عن المنشآت والمبانى التى خلدت ذكر العديد من حكام الأقاليم آنذاك.

أولا: الحياة الاقتصادية:

١- أهم سمات الحياة الاقتصادية.

٢- مساهمة حكام الأقاليم فى مجالات :-

أ- الزراعة.

ب- الصناعة.

ج- التجارة.

أهم سمات الحياة الاقتصادية فى مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين

امتازت مصر منذ القدم بشهرتها وتقدمها فى المجال الاقتصادى، حتى ذكر أنها خزانة الأرض كلها[١]، وكذلك تسمى سلة الغلال[٢]، وأنها أكثر بلاد الله دنانير وكنوزا وجوهرا[٣]، قل نظيرها فى بلد آخر وذلك منذ القدم.

أما فى العصر الفاطمى فقد تضاعفت هذه المكانة إذ حرص الخلفاء الفاطميون منذ وطأت أقدامهم أرض مصر على تنشيط الحياة الاقتصادية للبلاد بجوانبها المختلفة، من زراعة وصناعة وتجارة، وبذلوا فى سبيل ذلك جهودا كبيرة[٤]، ضمانا لأمن دولتهم وسلامتها، ومنافسة للخلافة العباسية فى بغداد، وهذا فعلا ما تحقق لها ،حيث شهدت البلاد نهضة كبيرة[٥]، ظهرت آثارها على شتى نواحى الحياة الأخرى، حقيقة أنه كانت هناك فترات اضطراب شهدتها البلاد، أثرت على اقتصادها تأثيرا بالغا، لكن كانت السمة الغالبة على هذا العصر الازدهار الاقتصادى[٦].

وقد شارك حكام الأقاليم فى مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين بدور لا يستهان به فى تلك النهضة، ويتضح ذلك من خلال تناول جوانب هذا النشاط:-

أولا: مساهمة حكام الأقاليم فى مجال الزراعة:-

كانت الزراعة ولازالت الحرفة الأولى لشعب مصر، وعليها يقوم نظامها الاقتصادي[٧]، بل تعد عصب الاقتصاد المصرى منذ أقدم العصور، وقد تنبه لذلك الفاطميون[٨]، الذين نظروا إليها على أنها المعول الرئيسى لبيت المال الفاطمى[٩]، وكان

(١) ابن الكندى: فضائل مصر المحروسة، ص ٢٧.
(٢) ابن زولاق: فضائل مصر، ص ٩٤.
(٣) ابن زولاق: السابق، ص ٨٥.
(٤) غالب عبد الحميد على شفير: السياسة الداخلية للدولة الفاطمية بعد المستنصر، ص ٧٩.
(٥) عن ازدهار النشاط الاقتصادى انظر ناصر خسرو: سفرنامة، ص ٥٨: ٦٢.
(٦) المزيد من التفصيل فى هذا المجال.انظر.د. سهام أبو زيد: الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى نهاية العصر المملوكي، ص ١٦٢: ١٦٥.
(٧) د. عبد المقصود الباشا: السياسة الداخلية للدولة الفاطمية بمصر فى عهد المعز لدين الله، ص ١١٩.
(٨) د.أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية فى مصر تفسير جديد، ص ٢٩٢.
(٩) محمود محمود حسن أحمد : الإسكندرية فى العصر الفاطمى، ص ٥٦.

نجاح الزراعة فى مصر يتوقف على عاملين. أولا: فيضان النيل أو منسوب زيادته[١]. ثاني: عناية الحكومة بتوفير الإمكانيات اللازمة للعناية بالزراعة، من تحسين الرى وصيانة الجسور، وتعميق الترع، والقنوات أو المحافظة على الجسور وصيانتها، وكذلك المقاييس المقامة على النيل وصيانتها، وقد خصصت لذلك مبالغ كبيرة[٢]. هذا فضلا عن تقديم التقاوى والبذور الجيدة والآلات الزراعية اللازمة[٣]. ومعاملة الفلاحين معاملة حسنة.

وهذا فعلا ما قامت به حكومة الخلفاء الفاطميين بمصر، من الاهتمام بمرافق الزراعة، وأحوال الفلاحين، فكانت معاملتهم للفلاحين تنطوى على التسامح واللين والرعاية بوجه عام[٤]. وعليه تمتع الفلاحون بمكانة وحرية لم تتوفر لهم فى عصر من العصور[٥]، بل بل وصل الأمر إلى إنشاء إدارة خاصة تشرف على أمورهم[٦]. فلم يترك الفاطميون تقدير الضرائب للمتقبلين والمقطعين، بل حددوا فئاتها، وكانوا يراجعونها من وقت لآخر، كما كان الفاطميون يسامحون بالمتأخرات المتراكمة لدى الملاك والمتقبلين[٧]، حتى لا يعملوا على إرهاق الفلاحين، وذلك بمقاومة المرابين [٨]، والمنتهزين للأزمات من التجار، الذين يقومون بشراء المحاصيل من الفلاحين قبل نضوجها بثمن بخس[٩]. وحرصا من الحكومة على الفلاحين وأعمال الزراعية أيضا كانت تأمر بمنع ذبح الحيوانات المساعدة فى أعمال الزراعة[١٠].

(١) وكان منسوب النيل يختلف من عام لآخر. وكان الحد الأدنى المطلوب لرى الأراضى هو ستة عشر زراعا. والأقصى ثمانية عشر، فإذا زاد عن ذلك غرقت الأرض، لذا اهتم الفاطميون بمقياس النيل ورصدوا له الأموال والموظفين. عن هذا بالتفصيل انظر. المقريزى: الخطط ، جـ١، ص ٩٢: ٩٨.

(٢) د. أيمن فؤاد : السابق، ص ٢٩٢.

(٣) د. أمينة أحمد إمام: رؤية الرحالة المسلمين ، ص ١٥٢.

(٤) البراوى: حالة مصر الاقتصادية، ص ١٠٥.

(٥) د. راشد البراوى: حالة مصر الاقتصادية، ص ١٠٧.

(٦) د. محمد جمال الدين سرور: مصر فى عصر الدولة الفاطمية، ص ١٩٧.

(٧) المقريزى: الخطط، جـ١، ص ١٣٢.

(٨) محمود حسن أحمد: الإسكندرية فى العصر الفاطمى، ص ٩٤.

(٩) المقريزى: إغاثة الأمة، ص ٢٠.

(١٠) أبو المحاسن: النجوم ، جـ٤، ص ٢٥٢.

وقد زاد من عناية الفاطميين بالزراعة أن الأمر كان متصلا بسياسة الدولة وأمنها، وخاصة أن هناك من المناطق ما هو مشهور بزراعة الأشجار اللازمة لصناعة الأسطول، ولهذا السبب كانت الحكومة تحتكرها، وتمنع بيعها، وعن هذه الأشجار يقول المقريزى: "... وهو أشجار سنط لا تحصى كثرة فى البهنساوية وسفط، والأشمونيين والأسيوطية والإخميمية والقوصية ولم تزل بهذه النواحى لا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار "(١).

ونتيجة لهذا الاهتمام والرعاية شهدت البلاد نهضة زراعية كبرى، وإن كان هذا لم يمنع وقوع أزمات اقتصادية، نتيجة لنقص فيضان النيل، أو غيره مما ينتج عنه قلة المحاصيل، وتعذر الحصول عليها، بل ربما وصل الأمر إلى وجود مجاعات وانتشرت الأوبئة والأمراض.

حكام الأقاليم والزراعة :-

إذا كانت الحكومة قد أولت الزراعة اهتماما كبيرا من كافة جوانبها، ومختلف أنواعها، فمن الطبيعى أن تكون اليد المنفذة لوسائل العناية، هم حكام الأقاليم وذلك نظرا لاتصالهم المباشر بالفلاحين والمناطق الزراعية، ولذا وقع على عاتق حكام الأقاليم الكثير من الأعباء والمهام المتصلة بالزراع والزراعة، وخاصة وأن هناك من الأقاليم ما كان مختصا بالزراعة دون غيرها من الأنشطة الاقتصادية، أو مشتهرا بزراعة محصول معين، أو أشجار معينة (٢).

ومن بين المهام التى كلف بها حكام الأقاليم فى مجال الزراعة ما أتى الأمر به صريحا فى سجلات تقليد بعضهم، من ذلك ما أورده القلقشندى فى أحد سجلاته حيث يذكر أنه كان على حاكم الإقليم "...إطابة أنفس المزارعين، بما يخفف من وطأة كانت ثقيلة، ويقلل عنهم من مغارم لم تكن قليلة "(٣) كما كان عليهم العناية بالمرافق الزراعية فى

(١) المقريزى : الخطط، جـ٣، ص ٣١٥.

(٢) عن هذا انظر : المقريزى الخطط، جـ ٢، ص ٣٤٤، د. محمد جمال الدين سرور: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ١٣٦، وما بعدها.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١٠، ص ٣٨٧.

أقاليمهم. من شق الترع، وإقامة الجسور[١]. وهذه الجسور نوعان: عامة : وكانت الحكومة تقوم بصيانتها بواسطة موظف مختص. أما النوع الثانى فهو الجسور البلدية وكان يتولى إقامتها وصيانتها المقطعون[٢]. ومن خلال ما ورد يظهر للوهلة الأولى أن أمراء الأقاليم لم يكن لهم دور فى هذا المجال، لكن كما هو معروف أن حاكم الإقليم مسئول عن كافة مرافق إقليمه، لذا فهو وإن لم يكن له دور منصوص عليه فى المجال، إلا أنه على الأرجح ليس ببعيد كل البعد عنه، إذ لا يستبعد أن يكون له دور الإشراف الأخير على إنشاء وصيانة الجسور الموجودة فى الإقليم،

ومن مهامهم الزراعية أيضا، مراقبة توزيع البذور على المزارعين، والتأكد من أن جميع أراضى إقليمه قد تم زراعتها، وإلا تعرض للمساءلة والعقاب، وفى هذا يذكر أن الأفضل بن بدر الجمالى لما ولى الوزارة اهتم بالزراعة اهتماما كبيرا، وأنه بلغ من التقدم الزراعى أن عمرت الأرض كلها. حتى أن الأفضل استجلب أردبين من نوع جديد من القمح وأراد تجريبهما فى الزراعة، فأرسل أحدهما إلى والى الصعيد، والآخر إلى والى الدلتا. فجاءه جواب أحدهما أن الأرض كلها مزروعة وليس هناك مكان لبذر القمح. فى حين ذكر الثانى أنه بذر الأردب. فعرف الأفضل اهتمام الأول بالزراعة حتى أنه لم يجد مكان غير مزروع يمكن زراعة هذا القمح فيه، فى حين أهمل الثانى حتى بقيت هناك أرض معطلة زرع فيها هذا الأردب فكافأ الأول، وعاقب الثانى[٣].

كذلك كان عليه مراقبة جنى المحصول، وإرسال الغلال المطلوبة إلى دار الخلافة[٤]. إذ أن حكومة الخلفاء الفاطميين بمصر وجدت أنه من الوسائل الفعالة لمقاومة الأزمات التى تتعرض لها البلاد، وخاصة مع اختلاف منسوب فيضان النيل، أن تحتفظ بكميات معينة من الغلال، وخاصة القمح، لإخراجها وقت الحاجة إليها، وكانت هذه الغلال

(١) د. الباشا: السياسة الداخلية للدولة الفاطمية فى عهد المعز، ص ٧.

(٢) د. عطية مشرفة: نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ، ص ١٩٩، غالب عبد الحميد شفير: السياسة الداخلية للدولة الفاطمية فى مصر بعد المستنصر، ص٨١.

(٣) د. المناوى: الوزارة والوزراء، ص ١٤٩: ١٥٠.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١٠ ص ٣٨٨.

تحفظ فيما يعرف بـ " الأهراء السلطانية " وكان موضعها آنذاك حيث المواضع التى كانت فيها الآن خزانة شمائل وما ورائها، إلى قرب الحارة الوزيرية[١]. كما أن هناك مقادير معينة من هذه المحاصيل ترسل إلى بعض الأقاليم التابعة للخلافة. آنذاك كالحجاز مثلا[٢]. وبالإضافة إلى هذا كان لهم دور فى حراسة الغابات التى تحتكرها الدولة لتوفير الخشب اللازم لصناعة الأسطول كما هو الحال فى منطقة الغربية مثلا[٣]. وذلك باعتبار هذه الغابات واقعة فى نطاق أقاليمهم من ناحية، وأن الأمر متصل بسياسة الدولة وأمنها من ناحية أخرى.

أما عن تقدير الضرائب وجمعها، فلم يكن له دور كبير فيها، إذ أن الأمر فى هذا يرجع لموظفين مخصوصين تبعث بهم الحكومة المركزية إلى الأقاليم لتحرير ما شمل الرى، وما زرع من الأراضى، وتقدير الخراج وكتابة المكلفات بذلك، لتقدير الخراج المقرر، والعودة بكل هذا إلى العاصمة، لتحديد المبلغ المطلوب، وعليه تقوم الحكومة المركزية ببعث من يقوم بجمع الضرائب المقررة، والتى يرجح أن يكون حكام الأقاليم هم المساعدين لهم فى إتمام هذه المهمة. إذ أن هؤلاء من المستخدمين فى الأموال والذين ورد ذكرهم فى بعض سجلات تقليد حكام الأقاليم. وفيها أوصى حاكم الإقليم بأن يأخذ على يد هؤلاء، حتى يتيقظ لما يجرى فى عمله، وأن يكون الرجوع إليه من قبل هؤلاء فى كل ما يحدث وينهى[٤]، كما يطلب منه أن " يندبهم لعمارة الأعمال وأن يبلغهم من المرافده كنه الآمال، وأن يساعدهم فى استخراج الأموال، والأخذ بحمل المعاملين على أحسن منهاج "[٥] ومن أخل من هؤلاء بما طولب به، فعليه تأديبه وفعل ما يقضى بتقويمه وتهذيبه[٦]، وذلك لأن الأموال

(١) المقريزى: الخطط، جـ٢ ، ص ٣٤٤.
(٢) د.أمينة أحمد إمام الشوربجى: رؤية الرحالة المسلمين، ص ١٦٨.
(٣) د. البراوى: حالة مصر الاقتصادية، ص ٧٣، د. أمينة إمام : السابق، ص ٩٩: ١٠٠.، د. صفى على : مدن مصر الصناعية، ص ٣٧٥: ٣٧٦.
(٤) القلقشندى: صبح الأعشى، جـ١٠، ص ٣٧٤.
(٥) القلقشندى: صبح، جـ١٠، ص ٣٧٨، ٣٨٢.
(٦) نفسه، ص ٤٣٢.

أولى ما يصرف إليه حاكم الإقليم همه، ويوقف عليه عزمه [١]، كما يبدو أنه كان له حق الإشراف على جمع الخراج وإرساله للعاصمة، وإذا ما تأخر عنه طولب به[٢].

كانت هذه أبرز المهام التى كان يكلف بها حكام الأقاليم فى مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين فى مجال الزراعة، والتى يتضح منها مدى الاهتمام الذى أولاه الفاطميون للنشاط الزراعى، ثم حرصهم على سير الزراعة وأمورها على أحسن وجه، حتى يتوفر لهم مصدر الدخل الرئيسى، وهو الخراج.

ثانيا : مساهمة حكام الأقاليم فى مجال الصناعة :-

إذا كانت الزراعة هى العماد الأول للثروة فى مصر فإن الصناعة لم تقل عنها أهمية، إذ كانت هى الأخرى موردا رئيسيا من موارد الدخل المصرية بشكل عام[٣]. وفى عصر الخلفاء الفاطميين بشكل خاص، حيث اشتهرت مصر منذ القدم بعدة صناعات مزدهرة[٤]، ومن هذه الصناعات صناعة المنسوجات والورق والزجاج والبلور، وصناعة الأخشاب، إلى جانب صناعة المعادن، والحلى وأدوات الزينة، والعطور، وغيرها من الصناعات المختلفة. ويعد العصر الفاطمى هو العصر الذهبى لهذه الصناعات على اختلاف أنواعها[٥]، وقد اتفق رحالة العصر الفاطمى على عظمة الصناعة آنذاك وتعدد مراكزها الصناعية الكبرى[٦]، حتى عدت مصر مركزا من أهم مراكز الصناعة فى العالم الإسلامى[٧].

الحكومة والاهتمام بالصناعة:-

مما لا شك فيه أن الازدهار الصناعى الذى شهدته مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين لم يأتى من فراغ، بل إن هناك عدة عوامل كانت سببا فى الازدهار الصناعى الذى شهدته البلاد، ويمكن تلخيص هذه العوامل فيما يأتى:

(١) نفسه ، ص ٤٥٦.
(٢) أبو المحاسن: النجوم، جـ٤ ، ص ٨٩.
(٣) د. فاطمة عامر: تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية ، جـ٢، ص ٩١.
(٤) د. صفى على: مدن مصر الصناعية فى العصر الإسلامى، ص ١١٩.
(٥) د. سامية مصيلحى: الحياة الاقتصادية فى الفسطاط ، ص٢٢.
(٦) د. أمينة إمام : رؤية الرحالة المسلمين، ص ٤٠١.
(٧) د. أمينة الشوربجى : السابق، ص ٢١٦.

١- الاستقلال السياسى الذى شهدته مصر آنذاك[١]. فلأول.مرة فى تاريخ مصر الإسلامية تصبح مصر مستقلة بذاتها، وحاضرتها حاضرة دولة مترامية الأطراف. وقد تمتعت بهذا الاستقلال على مدى قرنين من الزمان.

٢- سيادة النظام و العدالة والأمن والاستقرار[٢]، الأمر الذى أشاد به الرحالة الفارسى ناصر خسرو[٣] الذى ذكر أن " التجار كانوا لا يغلقون محالهم ليلا، بل يكتفون بأن يسدلوا عليها الستائر فقط ".

٣- التسامح والمعاملة الحسنة التى سادت فى ذلك العصر، وخاصة تجاه الأقباط الذين هم عماد الصناعة آنذاك، وكان الفاطميون يهدفون من وراء ذلك استغلال مهارة هذه الطائفة[٤]، والتى تعد عماد الصناعة آنذاك[٥].

٤- سيادة حياة اجتماعية قوامها البذخ والترف لم تر لها البلاد مثيلا من قبل[٦]، وقد كان لهذه الحياة تأثير كبير فى الإنتاج الصناعى، حيث تنوعت المنتجات لسد حاجة الخلفاء والوزراء ورجال الدولة وغيرهم[٧]. وعليه استوعبت السوق المحلية جانب كبير من الإنتاج الصناعى للمدن[٨].

٥- توفر المواد الخام اللازمة لقيام الصناعات المختلفة[٩]، فقد اشتهرت مصر بغناها بالنسبة للمواد الخام المختلفة اللازمة للصناعة من مواد نباتية وحيوانية ومعدنية. حتى ما لا يوجد بها فقد تم استيراده من الخارج[١٠].

---

(١) د. البراوى: حالة مصر الاقتصادية فى عصر الفاطميين، ص ١٢٠، د. مشرفة نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين، ص ٣٤٢.

(٢) د. البراوى : السابق، ص ١٢١.

(٣) ناصر خسرو : سفرنامة، ص ٦٢.

(٤) د. البراوى: السابق، ص ١٢١.

(٥) د. فاطمة عامر: تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية، جـ٢ ، ص ١١٩.

(٦) د. البراوى: السابق، ص ١٢١.

(٧) د. محمد جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية، ص ١٩٨: ١٩٩.

(٨) د. صفى على : مدن مصر الصناعية، ص ٤٥١.

(٩) د. مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين، ص ٣٤٢.

(١٠) عن هذا بالتفصيل انظر الكندى: فضائل مصر المحروسة ، ص ٤٨: ٤٩، د. البراوى: حالة مصر الاقتصادية، ص ١٢٤: ١٢٥، د. أمينة إمام : رؤية الرحالة المسلمين للأحوال الاقتصادية ، ص ٢١٧.

openkandil.com

٦- اهتمام الخلفاء الفاطميين بالصناعة والصناع، إذ قاموا بجعل كل ماهر فى صنعة صانعا للخاص، وإفراد مكان خاص لهم برسمهم، كذلك تشجيع الصناع الأجانب، واستخدام عدد من المهرة منهم، وترقيتهم إلى مراكز تتفق ومهاراتهم، فضلا عن منحهم الرواتب المجزية ومعاملتهم معاملة حسنة(١). أضف إلى هذا الاهتمام بالإشراف على الصناعات المعروفة آنذاك وحمايتها من الغش والتدليس وذلك عن طريق المحتسب وأعوانه(٢).

ونتيجة لهذه العوامل أصبحت مصر صرحا من صروح الصناعة الراقية المتقدمة فى العالم الإسلامى، بل أن بعض المراكز الصناعية بها أصبحت عالمية السمعة(٣). ويدلنا على هذا الازدهار والتقدم أن الرسوم على أحد المراكز الصناعية آنذاك، وهى " تنيس " بلغت حوالى ألف دينار يوميا(٤). يحملها شخص واحد ويوصلها إلى خزانة السلطان، دون أن يرفض أحد دفع ما عليه من الضرائب أو يجبى أكثر مما يستحق أن يفرض(٥). وإذا كان هذا المبلغ هو المفروض على إقليم أو مركز واحد من مراكز الصناعة المنتشرة على طول البلاد وعرضها(٦)، فما بالنا بالدخل الكلى الذى كانت تحصل عليه الحكومة(٧).

مظاهر اهتمام الحكومة بالصناعة:-

ونظرا للتقدم الصناعى الكبير الذى شهدته مصر آنذاك، وكثرة الأموال التى تدرها المراكز الصناعية، أصبحت هذه الأموال مصدرا مهما من مصادر دخل الدولة آنذاك، ولذا وجه الفاطميون اهتماما لهذا المصدر وفرضت النظم لحمايته، وكان من مظاهر الاهتمام.

(١) د. البراوى: السابق، ص ١٢٣: ١٢٤.
(٢) د. سهام أبو زيد : الحسبة فى مصر الإسلامية، ص ١٦٨: ١٧٣، ١٧٦: ١٧٧.
(٣) د. أمينة إمام الشوربجى: رؤية الرحالة المسلمين، ص ٢١٧.
(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم، ص ٢١٣.
(٥) ذكى محمد حسن : كنوز الفاطميين، ص ١١٦.
(٦) عن هذه المراكز انظر المقدسى : أحسن التقاسيم، ص ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٨ ٢٠٩، ٢١٣، وكذلك البراوى: السابق، ص ٢٨٠، وما بعدها.
(٧) عما فرض على الأقاليم وكيفية جبايتها انظر المقدسى : السابق، ص ٢١٣، المقريزى : الخطط ، جـ١ ، ص ١٦٦، وما بعدها.

انتشار نظام الطوائف الحرفية[١]. كما احتكرت العديد من المنتجات الزراعية وموارد الثروة سواء محلية أو مستوردة[٢]. كما شمل الأمر الإشراف الدقيق على عملية البيع والشراء، فكان البيع لا يتم إلا على أيدى السماسرة[٣]، وبعد أن يختم عليها بخاتم الحكومة. كما قامت الحكومة بعمليات تفتيش محكمة للمراكب عند إبحارها من الميناء[٤]. بل وصل الأمر الأمر إلى الاهتمام بالنظم المتعلقة بالصناعة ومنها الحسبة، فقد كان يدخل فى مهام المحتسب المراقبة الدقيقة على أرباب الحرف والصناعات. ولما لم يكن فى مقدرة المحتسب الإحاطة بكل الأعمال كان يرتب "عريفا" على كل صنعة من الصناعات، وفى كل سوق من أسواق مصر حيث يتولى أمر أهل هذه الصنعة[٥]. ويقوم العريف بنفس مهام المحتسب من منع الغش والتدليس، ومراقبة المكاييل والموازين، وتحديد الأسعار، كما كانت الحكومة تقوم بتحديد رواتب العمال بالاتفاق مع العريف[٦]. كما قامت الحكومة بتنظيم العملة المتداولة، بل وصل الأمر فى اهتمامها بالنظم المتعلقة بالصناعة، وخاصة الطرز[٧]، أن أن صار لكل نظام من أنظمتها ديوان خاص، كما كان للصناعات الأخرى دواوين لا تقل أهمية عنها[٨]. وبهذا تكون الحكومة قد ألمت بكل صغيرة وكبيرة مما يتصل بالصناعة، وما يتعلق بها.

(١) الطوائف الحرفية: ويقصد بها النقابات الصناعية التى كان ينتظم فى سلكها أرباب الحرف المختلفة. وعنها بالتفصيل انظر د. البراوى: حالة مصر الاقتصادية، ص ١٨٥ وما بعدها، د. أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية فى مصر، ص ٣١٥: ٣١٦.

(٢) د. صفى على : مدن مصر الصناعية فى العصر الإسلامى، ص ٣٧٥: ٣٧٦.

(٣) متز : الحضارة الإسلامية، ج٢، ص ٢٦٠.

(٤) د. البراوى: السابق، ص ١٤٥: ١٤٦.

(٥) المقريزى : إغاثة الأمة، ص ١٨، د/ سهام أبو زيد: الحسبة فى مصر الإسلامية، ص ١٢٦: ١٢٧.

(٦) البراوى : السابق، ص ١٩٢: ١٩٣.

(٧) الطراز :- ورد هذا اللفظ ضمن نصوص إحدى برديات متحف برلين بألمانيا، وهى بردية تنسب للقرن الثالث الهجرى" التاسع الميلادى " ولفظة طراز فارسية. ومعناها الثوب الموشى، أو المعلم- وأطلق هذا اللفظ فيما بعد على الدار التى كانت تصنع فيها الثياب، وأطلقت أيضا على صاحب الطراز وهو الشخص المسئول عن عمل الطراز فى الدولة الإسلامية. د. سعيد مغاورى: الألقاب وأسماء الحرف، ص ٥٩٩. وانتشر نظام الطرز فى سائر أنحاء العالم الإسلامى. وقد بدأت بشائره تظهر فى العصر الفاطمى أواخر القرن الرابع الهجرى " العاشر الميلادى " حيث أخذ الميل يزداد فى الزخارف. ذكى محمد حسن : كنوز الفاطميين، ص ١٢٠.

(٨) د. صفى على : مدن مصر الصناعية، ص ٤٥٣.

حكام الأقاليم والصناعة:-

إذا كانت الصناعة قد تشعبت فروعها، وانتشرت مراكزها على طول البلاد وعرضها، وأولتها حكومة الخلفاء الفاطميين الاهتمام الكبير، فمن الطبيعى أن يكون لحكام الأقاليم هم الآخرون. دور لا يستهان به فى هذا المجال، باعتبارهم من رجال الحكومة، والممثلين لها بالأقاليم. حقيقة أن المصادر والمراجع لم تشر صراحة إلى الدور المنوط بهؤلاء فى هذا المجال، ولكن من خلال البحث تم التوصل إلى بعض المهام التى يكلف بها هؤلاء فيما يختص بالصناعة ومتعلقاتها.

سبق الذكر أنه كان على كل صنعة من الصنائع عريف أمرها، وهو من أعوان المحتسب(١)، ويقوم بما يقوم به. وذلك فى كل سوق من الأسواق، ونظرا لأهمية الدور الذى يقوم به صاحب هذه الوظيفة، لذا يشترط فيه أن يكون أمينا ثقة، عارفا بصنعته، خبيرا بالجيد والردىء من حرفته، يحفظ لجماعته ما يجب أن يحفظ من أمرهم، ويجرى أمورهم على ما يجب أن تجرى عليه(٢). وكان تعيين العرفاء بأسواق الأقاليم يتم على يد حكام هذه الأقاليم(٣)، كما كان على حاكم الإقليم تقديم العون والمساعدة للعريف على وجه السرعة، إذا احتاج لذلك، وهذا قياسا على ما يجب عليه تجاه المحتسب(٤)، وذلك باعتبار العريف ممثلا له. كما كان أمير الإقليم أو حاكمه هو الواسطة بين العرفاء، والحكومة المركزية، ينقل إليهم أوامرها، وينقل إليها أخبارهم، وفى هذا يقول المقريزى: " وفيها – يعنى سنة سبع عشرة وخمسمائة- خرج أمر المأمون – يعنى الوزير البطائحى- إلى الواليين بمصر والقاهرة بإحضار عرفاء السقائين وإلزام المتعيشين منه بالقاهرة بحضورهم متى دعت الحاجة إليهم،

(١) د. سهام أبو زيد : الحسبة فى مصر الإسلامية، ص ٧٦: ٧٧.
(٢) المقريزى: إغاثة الأمة، ص ١٨. وعنها انظر د. سهام : الحسبة، ص ١٠٧: ١٠٩.
(٣) د. أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية، ص ٣٠٤.
(٤) القلقشندى : صبح ، جـ٣ ، ص ٤٨٣.

ليلا ونهارا. ولذلك الزم أصحاب القرب. وتقرر أن يبيتوا على باب المعونة، ومعهم عدة من الفعلة والمساحى.."[١].

ومن مهامه أيضا معاونة موظف يدعى "المتوكل بطراز الإقليم" فى تأدية مهامه، فمن المعروف أن أشهر الصناعات التى وجدت بمصر آنذاك صناعة النسيج، وكان الموكل بها شخص يدعى صاحب الطراز،ومهمته النظر فى أمور الثياب والآلة والحاكة فى دور النسيج، وإجراء أرزاقهم، ومشارفة أعمالهم[٢]. و كان يعاون هذا الموكل شخص آخر يطلق عليه الموكل بطراز الإقليم[٣] كما هو واضح من اسمه أنه كان يقوم فى إقليمه بنفس مهام صاحب الطراز بالعاصمة. وعلى الأرجح أنه كان على أمير الإقليم تقديم العون والمساعدة لصاحب هذه الوظيفة حتى يتمكن من أداء ما كلف به على الوجه الأكمل.

وفضلا عن هذا كان لحكام الأقاليم دور فى توفير المواد الخام اللازمة لبعض الصناعات من ذلك دورهم فى الحفاظ على الأخشاب اللازمة لصناعة الأسطول[٤]. ومن هذا أيضا دورهم فى التنقيب عن بعض المعادن، وفى هذا يقول ابن دقماق: "وقفت على بعض الكتب فوجدت مكتوبا فيه أن بعض الرجال من أهل الصعيد بمصر أتاه رجل وأعلمه أنه يعرف مدينة بأرض الواحات بها كنوز عظيمة وبها أنهار وأشجار وبها ثمر وأطيار، فتزودا وخرجا فسارا فى الرمل ثلاثة أيام حتى أشرفا على مدينة عظيمة وبظاهرها نهر عظيم، وإلى جانبه شجرة عظيمة، فأخذ الرجل من ورق تلك الشجرة فدقه ولطخ بمائه ساقيهما، وخاضا ذلك النهر فلم يتعدى حد ماء الورق، فصعدا إلى المدينة وأخذا من الذهب الذى بها ما أرادا وأطاقا حمله، وتفرقا فدخل ذلك الرجل الصعيدى لبعض ولاة الصعيد، وقص ما تم وأراه عين الذهب فأخذ منه الذهب، ووجه معه جماعة وزادهم زاد مدة وجعلوا يطوفون بتلك الصحارى مدة فلم يقعوا لتلك المدينة على أثر..."[٥]. ومن النص يتضح أن حاكم الإقليم

(١) المقريزى اتعاظ الحنفا، جـ٣ ، ص ١٠٠.
(٢) د. صفى على مدن مصر الصناعية، ص ٣٤٢: ٣٤٣.
(٣) مجموعة أوراق البردى العربية، ص ١٤٩: ١٥٠ لجروهمان.
(٤) المقريزى : الخطط، جـ١ ، ص ١٧٨.
(٥) ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار، جـ٥ ، ص ١٣.

يعد المسئول الأول عن استخراج المعادن الكائنة فى إقليمه أو المناطق التابعة له، حتى أنه لا يمكن اتخاذ خطوة فعالة فى سبيل استخراج شيء من هذا القبيل دون الرجوع إلى حاكم الإقليم.

كانت هذه أبرز مهام حكام الأقاليم فى هذا المجال، والتى تم التوصل إليها من خلال البحث، ويتضح منها أن الدور المكلف به هؤلاء فى هذا المجال لا يقل أهمية عن دورهم فى أى مجال آخر، وإن كانت المهام الموجودة قليلة، خاصة مع أهمية الصناعة بالنسبة للاقتصاد المصرى، ولقد نجح عدد من حكام الأقاليم فى القيام بدور عظيم فى مجال الصناعة بأقاليمهم حيث اهتموا بها اهتماما بالغا، بل وصل الأمر إلى أن أصبحوا على دراية بآلات هذه الصناعة، وأمورها ودقائق أحوالها، وأحوال العاملين بها[١].

ثالثاً: مساهمة حكام الأقاليم فى مجال التجارة:-

تعد التجارة فرعا رئيسيا من فروع الاقتصاد، وهى من المهن الشريفة ذات المكانة العالية، والتى حث عليها الدين الإسلامى[٢]، فضلا عن أن مصر أساسا بلد تجاري[٣]، وكان لقيام نشاط زراعى متقدم، وازدهار الصناعة وتطورها فى المدن المصرية، وزيادة الطلب عليها، أثر بالغ فى نشاط الحركة التجارية فقد شهدت الحركة التجارية فى مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين تقدما ورواجا لا مثيل له فى عصر من العصور، والحقيقة أن هذا الازدهار لم يأت من فراغ، ولم يكن بسبب تقد م الزراعة والصناعة فقط، بل أن هناك عوامل أخرى شاركت الحكومة فى إنجازها مشاركة فعالة، بهدف تحقيق التقدم التجارى.

العوامل التى ساعدت على رواج التجارة:-

١- سيادة الأمن والأمان اللذين تمتعت بهما البلاد فى ظل حكومة الخلفاء الفاطميين بمصر، وهذا الأمان الذى أشاد به الكثير من الكتاب والمؤرخون القدامى، وفى هذا يقول المقدسى: "وأما الولايات فللفاطمى وهم فى عدل وأمن لأنه سلطان قوى غنى

(١) محمد خليل أحمد هميمى : قوص من الفتح العربى حتى نهاية عصر المماليك، ص ٢٣٥.
(٢) د. سامية مصيلحى : الحياة الاقتصادية فى الفسطاط، ص ٢٠٧.
(٣) متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، جـ٢ ، ص ٢٨١.

والرعية فى راحة، وثم عدل ونفاذ أمر"[١]. وقد غمر هذا الأمان التجار سواء مصريين أو أجانب.

٢- التسامح الذى نعم به التجار الذميين، والذى بلغ مداه فى عصر الخلفاء الفاطميين، الذين قربوا التجار إليهم حتى جلبوا لهم أغلى التحف، وأرق أنواع المجوهرات، وغيرها من صنوف المتاع، ونتيجة لهذا بلغ بعض التجار الأجانب مكانة كبيرة عند الخلفاء الفاطميين، بل منهم من تمكن من القيام بدور كبير فى سياسة البلاد، نظرا لما نعموا به من تسامح و مكانة ، مما زاد من نشاطهم التجارى[٢].

٣- الاهتمام بطرق التجارة سواء داخلية أو خارجية، حيث كان للمواصلات الداخلية أثرها فى تسهيل نقل التجارة بين أجزاء البلاد المختلفة، سواء كانت طرقا مائية[٣]، أو برية[٤]. هذا فضلا عن الاهتمام بالتجارة الخارجية وطرقها، والقضاء على العقبات التى تعوقها[٥].

٤- الموقع الجغرافى، فقد تمتعت مصر بموقع جغرافى ممتاز، إذ أنها تتوسط قارات العالم القديم، وعليه برزت أهميتها فى التجارة العالمية[٦].

٥- منح الأمانات المتعاقبة للتجار، مما ساعد على رواج الحركة التجارية فى مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين. من ذلك ما ذكر عن منع" الحاكم بأمر الله " من الدخول من باب الزهومة إلى باب الزمرد، لأنه ملاصق للقصر، ثم سمح للمكارين بالدخول وكتب لهم أمانا ثم خاف الناس، فطلبوا منه أن يكتب لهم أمانا، فكتب أكثر من أمان، لأهل الأسواق بخاصة، وكلها نسخة واحدة[٧].

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم، ص ٢١٢.

(٢) د. فاطمة عامر: تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية، جـ٢ ، ص ١٧٦، د. سلام شافعى : أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى والأيوبى، ص ١٧٨.

(٣) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص ٢٠٣: ٢٠٤، محمد خليل أحمد هميمى : قوص من الفتح العربى، ص ١٣٨: ١٤٠.

(٤) د. البراوى : حالة مصر الاقتصادية، ص ٢٨٢: ٢٨٦، د. صفى على : مدن مصر الصناعية، ص ٢٧٨ وما بعدها، ص ٤٥١

(٥) د. راشد البراوى: السابق، ص ٢٤٩، محمد خليل هميمى : قوص من الفتح العربى، ص ١٥٢، ١٥٧.

(٦) د. فاطمة عامر : أهل الذمة فى مصر الإسلامية، ص ١٢٠، د. أمينة إمام : رؤية الرحالة المسلمين، ص ٣٠٥.

(٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا، جـ٢ ، ص ٥٧: ٥٨.

٦- إنشاء المبانى المختصة بالتجارة والعمليات التجارية، وذلك تسهيلا على التجار، ومساعدة لهم فى إنجاز الأعمال التجارية[١]. بل والسماح للتجار الأجانب بإقامة ما يحتاجون إليه من هذه المنشآت[٢].

٧- إلغاء بعض الضرائب المفروضة على التجار[٣]، وفى ذلك يقول المقريزى : " أن الحاكم الحاكم أصدر قرارا بإلغاء كثير من المكوس التى كانت قد ابتدعت، من ذلك مكس الرطب، ومكس دار الصابون، ومكس بعض التجارات التى كانت تصل بحرا إلى مدينة القلزم، والمكوس التى كانت تجبى بدارى الشرطة بالقاهرة ومصر "[٤].

٨- قيام الحكومة بعمل إصلاح نقدى، يمكن من خلاله إتمام عمليات تجارية صحيحة وناجحة[٥]، وهذا فعلا ما قام به جوهر منذ دخوله أرض مصر، تنفيذا لما وعد به فى أمانه[٦].

٩- الاهتمام بالأسواق وتنظيم شئونها، بل والإشراف عليها إشرافا مباشرا، وذلك عن طريق المحتسب وأعوانه، سواء بالعاصمة أو بالأقاليم، وذلك لضبط كل صغيرة وكبيرة تتصل بالعمليات التجارية[٧]. وحرصا على استمرار الحركة التجارية حتى أثناء الليل عملت الحكومة على إنارة هذه الأسواق[٨]، بل وتبليطها لتسهيل حركة العمل بها[٩].

١٠- عقد الاتفاقات مع الحكومات الأجنبية لعمل علاقات تجارية معها، ومنح الامتيازات للتجار الأجانب، وتقديم كافة التسهيلات لتنفيذ هذا، وجلب التجار الأجانب[١٠].

---

(١) عن هذه المنشآت انظر ابن ميسر : أخبار مصر، ص ٩٢، المقريزى : الخطط ،جـ٢ ، ص ١٤٩: ٣٢٢، والبراوى : السابق، ص ٢٧٠: ٢٧٣، د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها، ص ٢٩٩: ٣٠١، د. سهام : الحسبة، ص ١٦٣.

(٢) محمد خليل هميمى : قوص من الفتح العربى حتى نهاية عصر المماليك، ص ١٣١.

(٣) عن هذا انظر المسبحى : أخبار مصر، ص ١٩٦.

(٤) المقريزى : اتعاظ ، جـ٢ ، ص ١٦.

(٥) عن الإصلاح النقدى وأهميته فى العمليات التجارية انظر د. أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية فى مصر، ص ١٤٦: ١٤٨.

(٦) المقريزى : اتعاظ، جـ١، ص ١٠٢: ١٠٦، ١١٦.

(٧) د. راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية، ص ٢٧٥ وما بعدها، د. سهام : الحسبة، ص ١٦٥، ١٧٢.

(٨) المقريزى : الخطط ، جـ٣ ، ص ١٧٥: ١٧٦.

(٩) د.ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها، ص ٣٠٢: ٣٠٣.

(١٠) د. البراوى: السابق، ص ٢٤٨: ٢٥١.

ونتيجة لهذه العوامل نشطت الحركة التجارية وتقدمت بشكل لم يسبق له مثيل، سواء كانت تجارة داخلية أم خارجية وظهرت آثار هذا النشاط على حياة الترف والرخاء التى عاشتها البلاد[١]، كما ترتب على نشاط الحركة التجارية أن انتقل الثقل التجارى من بغداد إلى مصر، وظهرت مراكز تجارية لا مثيل لها فى أى مكان آخر من العالم[٢]. وأصبحت مصر مصر غنية بأسواقها العامرة[٣] هذه الأسواق التى وصل عددها فى الفسطاط وحدها إلى سبعة سبعة عشر سوقا[٤].

وعلى هذا كثر المتحصل من التجارة، والذى كان يعد مصدرا من مصادر الدخل الرئيسية فى دولة الخلفاء الفاطميين بمصر[٥]. ولهذا وضعت الحكومة الفاطمية العمليات التجارة تحت ضوابط محكمة، فنراها قامت بتسعير السلع[٦]، فضلا من وسائل أخرى [٧].
[٧].

حكام الأقاليم والتجارة :-

وحتى يتم للدولة الإلمام بكل الشئون التجارية، وما يتصل بها من قريب أو بعيد، فى أنحاء الأقاليم التابعة لها، وحتى تتأكد من تطبيق ما أمرت به من أحكام وقرارات متعلقة بالناحية التجارية، وما منحت من تسهيلات وامتيازات، جعلت لحكام الأقاليم دورا ملموسا فى هذا المجال. وقد نص على بعض المهام التجارية المكلف بها حكام الأقاليم فى سجلات تقليد بعضهم، حيث طلب من الأمير تجاه التجار" أن يتوخهم، ويسكن جأشهم ويزيل استيحاشهم، ويفسح لهم فى الرجاء الأمل "[٨] ويضاف إلى ما نصت عليه سجلات

(١) وذلك لأن التجارة هى أكثر الأنشطة جلبا للثروة. لهذا يقول الأستاذ " متز" : "أن أكثر الناس غنى وثروة هم التجار" الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، جـ٢ ، ص ٢٨١.

(٢) د. البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عصر الفاطميين، ص ١٩٨ وما بعدها.

(٣) د. السيد عطا : تاريخ الغربية، ص ٢٧١.

(٤) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ١٤٩.

(٥) عن هذا بالتفصيل انظر د. البراوى : السابق، ص ٢٦٦: ٢٦٩، د. إبراهيم أيوب : النظام الفاطمى السياسى، ص ١٨٢: ١٨٤.

(٦) ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ٦١.

(٧) عنها انظر د. راشد البراوى : السابق، ص ٢٧٨.

(٨) القلقشندى : صبح الأعشى، جـ١٠ ، ص ٤٣١.

تقليد بعض حكام الأقاليم من مهام تجارية لهؤلاء، فإن هناك مهاما أخرى، تم الوصول إليها خلال البحث، من هذا مثلا تعيين " وكلاء التجار"[١] ويعتقد أن صفة صاحب هذه الوظيفة أصبحت شبه حكومية، لذا كان عل صاحبها أن يحصل على ترخيص أو تأكيد من حاكم الإقليم الذى سوف يباشر اختصاصاته فى نطاقه وكان على حاكم الإقليم قبل أن يمنحه هذا التصريح، أن يضع فى اعتباره مكانة هذا الشخص بين زملائه التجار[٢]، وإذا كان أمير الإقليم هو صاحب الحق فى تعيين هذا الشخص الذى يعد بمثابة رقيب على الحركة التجارية والتجار، كان له الحق كذلك فى عزله ومتابعة كل تحركاته، بل ربما يتعدى الأمر إلى التدخل فيما يتم من عمليات تجارية نفذت تحت إشراف هذا الشخص، وعليه يمكن اعتبار حكم الإقليم مسئولاً بشكل كبير عن الأعمال التى تخص تجارة إقليمه.

كما كان من مهام حاكم الإقليم أيضا فى هذا المجال. قيادة الأسطول الحامى للتجار فى نطاق إقليمه، من ذلك ما ذكر عن تجارة البحر الأحمر، ومدى اهتمام الفاطميين بها، وتوفير وسائل الحماية والأمن لها، من ذلك ما قاموا به من تعيينهم لأسطول بعيذاب لحراسة مراكب " الكارميه "[٣] بين عيذاب وسواكن، والتى تعتبر ضمن مسئولياته فى الولاية التابعة لها عيذاب. فيروى أنه " كان للفاطميين أسطول بعيذاب يتلقى تجارة الكارم فيما بين سواكن وعيذاب وما حولها خوفا على مراكب الكارم من قوم كانوا بجرائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب، فيحميهم الأسطول منهم، وكانت عدة هذا الأسطول خمسة مراكب، ثم

---

(١) وقد كان هؤلاء نفوذ كبير ومكانة مرموقة، بل وثروات طائلة مكنتهم من إقامة منشآت عرفت باسمهم، من ذلك ما ذكره المقريزى" عن القرقوبى وكيل التجار حيث ذكر :"... المسجد المعروف بالقرقوبى وهو على قرنة الجبل المطل كهف السودان، بناه أبو الحسن القرقوبى الشاهد وكيل التجار بمصر فى سنة خمس عشرة وأربعمائة. وكان موضعه محراب ..يعرف بمحراب ابن الفقاعى الرجل الصالح، وهو يسار المحراب ، المقريزى : الخطط، جـ٤ ، ص ٣٣٦.

(٢) عن هذا بالتفصيل: انظر د. أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية، ص ٣٠٤: ٣٠٥.

(٣) التجارة الكارمية : أو تجار الكارم: لم يصل بعد الباحثون إلى تحديد مؤكد لمعنى لفظ الكارم أو الكارمية الوارد فى المصادر العربية وأوراق الجنيزة، ويذكر أن الكلمة غير عربية، وأنها توجد فى لغة " التأميل " جنوب الهند كلمة " كاريام " وتعنى ضمن ما تحمل من معانى الأعمال والأشغال، ولما كانت أعمال الشرق الأوسط الرئيسية مع ساحل الهند الشرقى هى فى الأساس أعمالا تجارية فمن المحتمل أن يكون ذلك الاسم قد أطلق على ملاك السفن والتجار المترددين على هذه البلاد ويذكر البعض أن الكلمة ترجع إلى أصل عربى، وأنها تتكون من مقطعين " كار = وبم " " كار " بمعنى الحرفة أو التجارة و"بم " بمعنى المحيط أو البحر البعيد الشاطئ، وسقطت الياء فصارت " كارم " أى حرفة التجارة فى البحار .د.أيمن فؤاد : الدولة الفاطمية، حاشية ٦٩، ص ٣٠٨.

صارت إلى ثلاث، وكان والى قوص هو المتولى لأمر هذا الأسطول وربما تولاه أمير من الباب، ويحمل إليه من خزائن السلاح ما يكفيه "[١].

هكذا نجد أن المهام التجارية لحاكم الإقليم لم تقف عند حد التجارة الداخلية، بل تتعداها للتجارة الخارجية، حيث أصبح على حاكم إقليم قوص قيادة مثل هذا الأسطول الحامى للتجارة الخارجية. ومن المهام التى اطلع بها حكام الأقاليم فى هذا المجال أيضا تحكمهم فى تجارة الأسماك، وكذلك صيدها فينقل لنا المقريزى عن الطرطوشى، وهو من أعلام الإسكندرية فى العصر الفاطمى– قوله "... وقال أبو بكر الطرطوشى عمن حدثه عن مشايخ البحر أنه قال شاهدت الإسكندرية والصيد فى الخليج مطلق للرعية، والسمك فيه يطفو الماء به كثرة حتى تصيده الأطفال بالخرق، ثم حجزه الوالى ومنع الناس من صيده، فذهب حتى كان لا يرى فيه الواحدة بعد الواحدة "[٢].

ومن خلال العرض السابق يتبين الدور الذى قام به حكام الأقاليم فى التجارة، والذى ألم بكثير من جوانب هذا النشاط وهو الأمر الذى حرصت عليه الحكومة المركزية ضمانا لسير التجارة بالأقاليم بالشكل الذى ترسمه الحكومة فى العاصمة، وذلك حفاظا على مصدر هام من مصادر دخلها.

وبهذا تكون قد اكتملت أفرع النشاط الاقتصادي واتضح بقدر الإمكان الدور الذى اطلع به حكام الأقاليم فيه، وذلك باعتباره فرعا من النواحى الحضارية التى شارك فيها حكام الأقاليم بجهود لا يستهان بها، والتى كان لها الفضل، فى تقدم الدولة ورقيها، بل والحفاظ على كيانها كدولة مستقلة ذات كيان وسيادة استمرت أكثر من قرنين من الزمان.

ثانيا: الحياة الاجتماعية.

١– أهم سمات الحياة الاجتماعية.

٢– صور من الحياة الاجتماعية لحكام الأقاليم، وعلاقتهم بالرعية.

(١) محمد خليل هميمى : قوص من الفتح العربى، ص ١٢٩ نقلا عن القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٣ ، ص ٥٢.
(٢) المقريزى : الخطط، جـ١ ، ص ٢٧٦، وعن هذا أيضا انظر السيد سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص ٥٢٤.

دور حكام الأقاليم فى الحياة الاجتماعية:

كانت مجالات الحياة الاجتماعية من المجالات التى شارك فيها حكام الأقاليم بدور فعال ومؤثر حيث كان لهم دور رئيسى فى حياة الناس، وتسيير شئونهم، ورعاية مصالحهم، بما يوفر لهم الأمان والرخاء، وساعدهم على ذلك اتصالهم المباشر بالرعية، وقربهم منهم، ومسئوليتهم تجاههم، هذه المسئولية التى تشمل الكثير مما يمس حياة هؤلاء، من حمايتهم، ورعايتهم، ومشاركتهم أحزانهم، وأفراحهم، ودفع الضر عنهم، الأمر الذى تحقق بالفعل فى عصر الخلفاء الفاطميين بمصر ، حتى شمل الكثير من أفراد الرعية.

أهم سمات الحياة الاجتماعية :-

تختلف النظم الاجتماعية فى المجتمع الواحد من إقليم لإقليم، باختلاف العصور، كذلك تتنوع العادات بنفس الطريقة التى تشكلت بها فئات الشعب[١]. وكان قد صحب التغيير السياسى الذى شهده المجتمع بدخول الفاطميين مصر، تطور حضارى، أدى إلى نقلة المجتمع من حالة إلى حالة أخرى جديدة[٢]، فقد حاول الفاطميون الاندماج فى الحياة المصرية، كما شاركوا فيها بالكثير من الأعمال، مما كان له أثره على حياة الأمة، ونضوج شخصيتها[٣]. ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا أن الدولة الفاطمية أحدثت انقلابا فى الحياة الاجتماعية، وغيرت فى التقاليد والعادات، بما أدخلته فى المجتمع المصرى من أوضاع جديدة، لم يكن معظمها موجودا قبلهم[٤]، حيث اتسمت الحياة الاجتماعية آنذاك بعدة سمات أهمها:-

حياة الترف والبذخ، التى لم تشهد لها البلاد مثيلا من قبل[٥]، وكانت أهم العوامل التى ساعدت على ذلك الثراء والغنى الواضح، الذى شمل الكثير من الطبقات فى دولة

(١) د. السيد عطا : تاريخ الغربية، ص ٣١٧.(ولم أتطرق لتشكيل الشعب المصرى، وعاداته وتقاليده فى فترة البحث نظرا لكثرة الأعمال المكتوبة فى هذا المجال من ناحية، ولأن ما يهمنا هو دور حكام الأقاليم فيه فقط من ناحية أخرى.)

(٢) د. صفى على : مدن مصر الصناعية فى العصر الإسلامى، ص ٤٠٩.

(٣) د.أحمد مختار العبادى: فى التاريخ العباسى والفاطمى، ص ١٦١.

(٤) إبراهيم شعوط، ذكى غيث : مصر من عهد بناة القاهرة، ص ١١٨: ١١٩.

(٥) د. راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، ص ١٢١.

الخلفاء الفاطميين بمصر[١]، والذى نتج عن الرخاء الاقتصادي، هذا الرخاء الذى بدأت آثاره فى الظهور، منذ دخول المعز لدين الله الفاطمى أرض مصر، ووضعه نظام جديد للضرائب[٢]، فضلا عن أن أرض مصر أصبحت دولة مستقلة تنفق مواردها داخلها[٣]، هذ الأرض التى تتميز بأنها على حظ وافر من الثراء والخير بفضل نيلها[٤]، وأضف إلى هذا كله الأموال التى أتى بها الفاطميون معهم إلى مصر[٥]، بل ومحاولتهم المستمرة منافسة الخلفاء العباسيين فى بغداد، والإصرار على التفوق عليهم، لهذا كله كثرت الأموال، وانعكس هذا على حياة الحكام والمحكومين، وفى شتى جوانب الحياة، حيث أغرى الفاطميون المصريين بالثروة الضخمة، فأسرفوا فى نفقاتهم، حتى أصبح ذلك من سمات الدولة الفاطمية[٦]، وقد ظهر ذلك فى قصور الفاطميين[٧]، وفرشهم، وأمتعتهم، وملابسهم، وحليهم وزخارفهم، وتحفهم، وطعامهم، وشرابهم[٨]. الأمر الذى أفاض المؤرخون والكتاب فى وصفه والحديث عنه، حتى أصبح لكل هذه الأشياء خزانته الخاصة به[٩]، وقد تجلى ذلك كله وظهر بوضوح فيما خلفوه من آثار ومنشآت[١٠]، كذلك فى ازدهار الفنون[١١]، وتقدم الصناعات[١٢].

ولم يقتصر الأمر فى هذا كله على الخلفاء وذويهم فقط، بل تعداه إلى الوزراء والأمراء الذين عملوا على التشبه بخلفائهم[١٣]، وكذلك العامة الذين حرص الخلفاء على

(١) إبراهيم شعوط : مصر من عهد بناة القاهرة، ص ١١٨: ١١٩.
(٢) حسن إبراهيم حسن : التاريخ الإسلامى السياسى، ص ٣٠٥.
(٣) د.صفى على: مدن مصر الصناعية، ص ٤٥٠.
(٤) أحمد النجار: الإنتاج الأدبى لمدينة الإسكندرية، ص ٤١.
(٥) د. حسين دويدار : الحياة الاجتماعية فى مصر فى العصر الفاطمى، ص ٣٤١.
(٦) د. حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر، ص٢٣٣، تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٥٥٩، د. عبد الفتاح السرنجاوى : محاضرات فى التاريخ الإسلامى، ص ١٠٦.
(٧) عن وصف أحد القصور: انظر ناصر خسرو : سفرنامة، ص ٦٣ وما بعدها.
(٨) د. سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية، ص ٢٠٥: ٢٠٨.
(٩) لمزيد من التفصيل انظر د. مروة عاطف : وظائف خدمات القصر، ص ١١٨: ١٦٣..
(١٠) د. العبادى: فى التاريخ العباسى والفاطمى، ص ٢٦٢.
(١١) د. أحمد فكرى: مساجد مصر ومدارسها، ص ١١.
(١٢) متز: الحضارة الإسلامية، جـ٢ ، ص ٢٥٧.
(١٣) د. سرور : السابق، ص ٢٠٧: ٢٠٨.

الإغراق والإنعام عليهم، حتى يعيشوا فى سعة ورغد، ولا أدل على ذلك من قول الخليفة الفاطمى العزيز بالله (٣٦٥- ٣٨٦هـ/ ٩٧٥- ٩٩٦م) لعمه: " أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة، وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر، ولهم الخيل واللباس، والضياع والعقار، وأن يكون ذلك كله من عندى "[١]. ومن لم يشمله عطف ورعاية وعطاء الخلفاء، حاول التشبه بهم فى حياتهم، وفعلا ظهرت آثار الثراء والنعم واضحة عليهم، وبشكل لم يرى له مثيل من قبل، وقد نقل لنا " ناصر خسرو " فى كتابه سفرنامة فى وصفا لبيوت العامة، حيث قال: " كانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول إنها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة، وهى بعيدة عن بعضها، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر، ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغى لبيته فى كل وقت، من هدم أو إصلاح، دون أن يضايق جاره "[٢]، كما ذكر قوله "... ورأيت أموالا يملكها بعض المصريين لو ذكرتها أو وصفتها لما لما صدقنى الناس فى فارس، فإنى لا أستطيع أن أحدد أموالهم أو أحصرها..."[٣].

وإذا كان للثراء والغنى آثار حسنة، ففى نفس الوقت كانت له آثار سيئة، تجلت فى انتشار بعض مظاهر اللهو، والمجون، والفجور، وشرب الخمر، حتى وقعت البلاد فريسة للانحطاط[٤]، وقد ظهرت آثار ذلك فى آدابهم، وأشعارهم، ومجالسهم، واحتفالاتهم[٥]، وزاد الأمر حتى أصبح هذا الانحطاط سببا من أسباب انحلال الدولة الفاطمية، ثم سقوطها فى النهاية[٦].

كما كان من سمات الحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين، الاهتمام بالأعياد والمواسم وإقامة الاحتفالات تلك التى أقامها الفاطميون فى المواسم والأعياد، وما يعد لها ويقدم فيها، والتى أخذت الكثير والكثير من أموال الفاطميين

(١) ابن تغرى بردى: النجوم ، جـ٤ ، ص ١٢٥.
(٢) ناصر خسرو: سفرنامة، ص ٥٠.
(٣) ناصر خسرو : السابق، ص ٦٢.
(٤) د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٥٥٩.
(٥) د. حسين دويدار : الحياة الاجتماعية، ص ٥٣٣.
(٦) د. حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص، ص ٢٣٣.

واهتمامهم على مدار العام[١]، والتى تدل على مقدار المظهر الذى يحيط بالحياة العامة [٢] وفى هذه الاحتفالات كانت تقام المآدب للخاصة والعامة، وقد أفاض المؤرخون والكتاب الحديث عنها وعن وصف إحدى هذه المآدب يقول ناصر خسرو" يقيم السلطان مأدبة فى كل من العيدين، ويأذن بالاستقبال فى قصره للخواص والعوام، وتنصب مائدة الخواص فى حضرته، ومائدة العوام فى سرايا أخرى...." [٣] ولم يقصر الأمر على الاحتفال بالمناسبات التى تتعلق بالدين الإسلامى، بل تعدها للاحتفال بالمناسبات التي تتعلق بأهل الذمة، خاصة النصارى، كالاحتفال بعيد النوروز وغيره من أعيادهم [٤].

كما كان من سمات الحياة الاجتماعية آنذاك إقامة المواكب الخليفية، تلك التى يقيمها الفاطميون فى المناسبات كانت تقام المختلفة، وفيها يركب الخلفاء على أحسن صورة وأبهى منظر، كما كانت تزين لهم القاهرة وكذلك الفسطاط، لمرور مواكبهم، وذلك فى مناسبات معينة[٥]، هذا فضلا عن ركوبهم فى جمع بعض الشهور[٦]، كجمع شهر رمضان مثلا.

كانت هذه بعض سمات الحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين، والتى توضح كلها مدى ما تمتع به هؤلاء من حياة مترفة، كما تشير إلى اهتمام البعض منهم بالرعية وحرصهم على أن يكونوا فى سعة من العيش.

صور من الحياة الاجتماعية لحكام الأقاليم :-

حذا حكام الأقاليم حذو الخلفاء والأمراء والوزراء، فى إحاطة أنفسهم بمظاهر الهيبة والبذخ والإسراف، خاصة وأنهم كانوا ممثلين للخلفاء الفاطميين فى الأقاليم التابعة

(١) عن هذا انظر أبو صالح الأرمنى: تاريخه، ص ٣١: ٣٢، د. المناوى : الوزارة والوزراء، ص ٥١، د. سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ، ص ٢٠٨: ٢١٣، د. أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية فى مصر، ص ٢٧٠: ٢٧٢، إبراهيم شعوط : مصر من عهد بناة القاهرة، ص ١٢٠: ١٢٢، د. ماجد : ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها، ص ٣٠٨: ٣١٠، د. أمينة أحمد إمام : رؤية الرحالة المسلمين، ص ١١٤: ١١٧.

(٢) متز: الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى، جـ٢، ص ٢٠٦.

(٣) ناصر خسرو: سفرنامة، ص ٦٣

(٤) لمزيد من التفصيل عنها، انظر، المقريزى: الخطط، جـ٢، ص ٣٨٩: ٣٩٢.

(٥) عنها بالتفصيل انظر ابن الطوير : نزهة المقلتين، ص ١٤٦، وما بعدها.

(٦) المقريزى: الخطط، ج٢، ص ٣٩٢.

للدولة، وإذا كانت معظم المصادر التى تناولت تاريخ تلك الفترة لم تمدنا بمعلومات وافية أو صريحة فى هذا المجال، إلا أنه من الممكن الوصول إلى بعض جوانب، أو صور عن حياة هؤلاء، من خلال الإشارات الخاطفة، والغير مباشرة التى أوردها المؤرخون والكتاب بين سطور مؤلفاتهم، وكذلك من خلال القياس على حياة بعض المسئولين بهذه الأقاليم، ومن أهم هذه الصور :-

قصور حكام الأقاليم :-

سبق القول بأنه من بين حقوق حكام الأقاليم الإقامة فى قصور خاصة بهم، هذه القصور تقيمها الحكومة المركزية فى قصبات الأقاليم، لهذا الغرض خصيصا، وبالرغم من أنه لم تصلنا تفصيلات ودقائق هذه القصور، ومبانيها وشكلها، ومساحاتها، وما تحويه، لكن فى الوقت نفسه تم العثور على معلومات عن قصور أخرى لأشخاص آخرين، منهم من كان من رجال الحكومة وغيرهم، وبالقياس على هذه القصور، يمكننا رسم صورة تقرب من الحقيقة لقصور حكام الأقاليم.

فعلى سبيل المثال ينقل لنا المقريزى وصفا لما احتواه قصر أحد المسئولين بمدينة الإسكندرية، وهو القاضى ابن حديد[1]،وذلك أثناء حديثه عن الهودج الذى بناه الخليفة الآمر سنة (٤٩٥- ٥٢٤هـ/ ١١٠١-١١٣٠م) لمحبوبته البدوية[2]. إلى أن قال: "... وكان بالإسكندرية مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد له مروءة عظيمة ويحتذى أفعال البرامكة، وللشعراء فيه أمداح كثيرة مدحه ظافر الحداد، وأمية بن أبى الصلت وغيرهما، وكان له بستان لينفرج فيه له جرن كبير من رخام، وهو قطعة واحدة وينحدر فيه الماء، فيبقى كالبركة من كبره، وكان يجد في نفسه برؤيته زيادة على أهل النعم، والمباهاه فى عصره، فوشى به للبدوية محبوبة الآمر فسألت الخليفة الآمر

(١) ابن حديد : هو القاضى مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن ابن حديد قاضى الإسكندرية زمن الخليفة الآمر. المقريزى: الخطط ،ج٢، ص ٣٧٧.

(٢) الهودج : بناه الآمر لمحبوبته البدوية التى غلب عليه حبها فتزوجها ولكن هذه المحبوبة لما وصلت إلى قصر الخليفة، صعب عليها مفارقة ما إعتادته ، وأحبت تسرح طرفها فى الفضاء، ولا تنقبض تحت حيطان المدينة فبنى لها البناء المشهور فى جزيرة الفسطاط المعروف بالهودج- المقريزى: السابق، نفس الجزء، والصفحة.

فى حمل الجرن إليها، فأرسل لابن حديد بإحضار الجرن، فلم يجد بدا من حمله من البستان، فلما صار إلى الآمر أمر بعمله فى الهودج، فقلق ابن حديد وصارت فى قلبه حرارة من أخذ الجرن، فأخذ يخدم البدوية، ومن يلوذ بها بأنواع الخدم العظيمة الخارجة عن الحد فى الكثرة، حتى قالت البدوية هذا الرجل أخجلنا بكثرة تحفه، ولم يكلفنا قط أمرا نقدر عليه عند الخليفة مولانا فلما قيل له هذا القول عنها، قال مالى حاجة بعد الدعاء لله بحفظ مكانها وطول حياتها فى عز، غير رد الفسقية التى قلعت من دارى التى بنيتها فى أيامهم من نعمتهم، ترد إلى مكانها، فتعجبت من ذلك وردتها عليه، فقيل له: " وصلت إلى أن خيرتك البدوية فى جميع المطالب فنزلت همتك إلى قطعة حجر، فقال أنا أعرف بنفسى ما كان لها أمل سوى أن لا تغلب فى أخذ ذلك الحجر من مكانه، وقد بلغها الله أملها، وكان هذا المكين متولى قضاء الإسكندرية ونظرها فى أيام الآمر" [(١)]. ويذكر أحد المؤرخين المحدثين وهو الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم : " أن هذا القصر يعد من أشهر قصور الإسكندرية فى زمن الفاطميين وأنه احتوى الكثير، وما قدمه المقريزى ما هو إلا وصف لجزئه فقط "[(٢)]. وإذا كان هذا هو وصف لجانب واحد من جوانب قصر القاضى الذى هو رجل دين تتصف حياته بالزهد والتواضع، فما بالنا بقصر أمير المدينة وصاحب الحكم بها.

بالإضافة إلى هذا فقد ورد وصفا لقصر آخر من قصور الإسكندرية يعرف أهله ببنى خليف، وقد ورد وصف هذا القصر فى شعر ابن قلاقس[(٣)]، وقد حفظه عنه ابن ظافر[(٤)] الذى حكى : " وحضر– أى ابن قلاقس– يوما عند بنى خليف بظاهر الإسكندرية فى قصر رسا بناؤه وسما، وكان يمزق بمزاحمته أثواب السما، وقد ارتدى جلابيب السحائب، ولاث عمائم الغمائم، وابتسمت ثنايا شرفاته، واتسمت بالحسن حفايا غرفاته، وأشرف على سائر نواحى الدنيا وأقطارها، وحبته الرياض بما ائتمنتها عليه السحب من ودائع أمطارها، والرمل بغنائه قد نثر تبره فى زبرجد كورمه، والجوقد بعث بذخائر الطيب لطيمه نسيمه والنخل قد

(١) المقريزى: الخطط، ج٢، ص ٣٧٧: ٣٧٨.
(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، ص ٢١٦.
(٣) انظر ترجمته فى دور الولاة فى الحياة العلمية، ص (٢٩٨).
(٤) انظر ما يأتى، ص (٢٩٧).

أظهرت جواهرها، ونشرت غدائرها... فسأله بعض الحضور أن يصف ذلك الموضع الذى تمت محاسنه، وغبط به ساكنه وغبط به ساكنه... فقال :-

قصر بمد رجة النسيم تحدثت ... فيه الرياض بسرها المستور
خفض الخورنق والسدير سموه ... وثنى قصور الروم ذات قصور
لات الغمام عمامه مسكبة ... وأقام فى أرض من الكافور
غنى الربيع به محاسن وصفه ... فافز عن نور يرون ونور
فالدوح بسحب حلة من سندس ... تزهى بلؤلؤ طلها المنثور
والنخل كالغيد الحسان تفرطت ... بسبائك المنظوم والمنثور
والرمل فى حبك النسيم كأنما ... أبدى غضون سوالف المذعور[1]

ومن الوصف السابق نصل إلى صورة واضحة لأحد القصور الكائنة بأحد الأقاليم، فى ذلك الوقت، وإذا كان هذا هو حال ووصف قصر من ليس بأمير، أو مسئول بإقليم ما من الأقاليم المصرية آنذاك فما بالنا بقصر أمير الإقليم.

فرش القصور :-

كذلك لم أعثر على معلومات كافية عن الفرش والأمتعة والستور التى كانت تحويها قصور حكام الأقاليم، لكن مما لا شك فيه أنها كانت غاية فى الروعة والجمال خاصة مع الثراء الواضح الذى شهدته بعض الأقاليم المصرية آنذاك[2]، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى مع تقدم صناعة الفرش والأمتعة التى ازدهرت فى كثير من الأقاليم بشكل كبير. وقد نقل لنا المؤرخ عمارة اليمنى، وصفا شائقا لقصر الوزير طلائع بن رزيك حيث يقول :

(١) أحمد النجار: الإنتاج الأدبى لمدينة الإسكندرية، ص ١٦٤: ١٦٦.
(٢) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص ١٩٠، د. عائشة التهامى : أضواء جديدة على بعض التحف التطبيقية التى عثر عليها بحفائر قوص، ص ٥٧٨.

ألبستها بيض الستور وحمرها ... فأتت كزهر الروض أبيض وأحمرا
وسقيت منه ذوب النضار وسقوفها ... حتى يكاد نضارها أن يقطر
لم يبق نوع صامت أو ناطق ... إلا عذا فيها الجميع مصدرا [1].

وعلى هذا كانت قصور أولى الأمر فى حكومة الخلفاء الفاطميين بالحاضرة، ولا يستبعد أن تكون قصور حكام الأقاليم قد بنيت على منوالها.

من مظاهر الثراء والغنى :-

أما عن مظاهر الثراء والغنى فى حياة هؤلاء، فينقل لنا المقريزى صورة من حياة أحد المسئولين بإحدى الأقاليم المصرية فى عصر الخلفاء الفاطميين وهو القاضى مكين الدولة بن حديد الذى بلغ من علو همته وعظيم مروءته: "أن سلطان الملوك حيدرة أخا الوزير المأمون بن البطائحى، لما قلده الآمر ولاية ثغر الإسكندرية سنة سبع عشرة وخمسمائة وأضاف إليه الأعمال البحرية، ووصل إلى الثغر وصف له الطبيب دهن شمع، بحضور القاضى المذكور، أمر القاضى بعض غلمانه بالمضى إلى داره لإحضار دهن شمع، فما كان أكثر من مسافة الطريق،إلى أن أحضرا صقا مختوما فك عنه، فوجد فيه منديل لطيف مذهب، على مداف بلور فى ثلاث بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر، بيت دهن بمسك، وبيت دهن بعنبر طيب، لم يكن فيه شئ مصنوع لوقته، فعندما أحضره الرسول تعجب المؤتمن والحاضرون، من علو همته. فعندما شاهد القاضى ذلك، بالغ فى شكر أنعمه، وحلف بالحرام إن عاد إلى ملكه، فكان جواب المؤتمن قد قبلته منك لا لحاجة إليه، ولا لنظر فى قيمته، وبل لإظهار هذه الهمة وإذاعتها وذكر أن قيمة هذا المداف وما عليه خمسمائة دينار، فانظر رحمك الله إلى من يكون دهن الشمع عنده فى إناء قيمته خمسمائة دينار، ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج إليه. فماذا تكون ثيابه وحلى نسائه، وفرش داره وغير ذلك من التجملات. وهذا إنما هو حال قاضى الإسكندرية، ومن قاضى الإسكندرية بالنسبة إلى أعيان الدولة بالحضرة وما نسبه أعيان الدولة وإن عظمت

(١) مختارات من شعر عمارة، ص ٢٢٣.

أحوالهم إلى أمر الخلافة وأبهتها إلا يسير حقير"[١]. وإذا كان هذا هو حال قاضى البلد، فما هو إذن بحال أمير الإقليم أو حاكمه.فمما لاشك فيه أن هذا – وأكثر– ينطبق على حكام الأقاليم الذين عاشوا هم الآخرون حياة تمتاز بالثراء، والترف، والبذخ، وقد ساعدهم على ذلك ما منحوا من رواتب، وعطايا، ومنح، وخلع، وهدايا على مدار العام فى الأعياد والمناسبات المختلفة، مما مكنهم من العيش فى مستوى معيشة متميز فى كافة الجوانب، ومكنهم من التأنق فى مآكلهم وملبسهم، واتخاذ الخدم، وإقامة الاحتفالات، وعقد المجالس، فضلا عن منح العطايا والهبات والهدايا لجلسائهم، أضف إلى هذا ما كونوه من ثروات طائلة. نتلمس بين سطور المؤلفات صورا واقعية عن هذه الأوضاع ويورد لنا المقريزى قوله : " بأنهم– أى الفاطميين– كانوا يتأنقون فى المآكل، حتى إن الخادم والسائس من غلمانهم، ينفق فى كل يوم على طعامه العشرة دنانير والعشرين دينارا لسعة أحوالهم "[٢].

كما ملئت قصر حكام الأقاليم بالخدم، من الخصيان والعبيد وغيرهم، حيث استلزمت العادة فى بيوت السادة الكبراء، أن تهيأ هذه البيوت بالخصيان[٣]. وذلك للقيام بالأعمال التى تسند إليهم فى قصور أولى الأمر بدولة الخلفاء الفاطميين بمصر، بداية من الخليفة[٤]، إلى الوزير، إلى حكام الأقاليم تشبها بالخلفاء.

مجالس حكام الأقاليم وعطاياهم :–

حرص حكام الأقاليم على عقد المجالس، والاجتماعات والمناظرات بقصورهم، تشبها بالخلفاء و الوزراء، وقد حوت هذه المجالس العديد والعديد من العلماء والأدباء والشعراء، الذين عمل حكام الأقاليم على تقريبهم منهم، والإغداق عليهم من أموال إلى خلع وهبات وغيرها، هذا فضلا عن الهدايا التى كانوا يمنحونها لذويهم والمقربين إليهم، ومن ذلك

(١) المقريزى: الخطط، ج٢، ص ٣٧٨.

(٢) المقريزى : اتعاظ، ج٣، ص ٣٤٣.

(٣) متز: الحضارة الإسلامية، ج٢، ص ١١٢، وأصل ذلك دينى، وقد نشأ هذا الجنس (الجنس الثالث) قديما لإرضاء الآلهة، وقد أنكر الرسول – صلى الله عليه وسلم –هذه القيمة الدينية، كما أنكرها الفصل الأول من قرارات مؤتمر نيقية، كما حرم الإسلام ذلك وشدد فيه. متز: الحضارة الإسلامية، ص ١١٢، حاشية ١.

(٤) عن هذه الوظائف بالتفصيل : انظر د. مروة عاطف: وظائف خدمات القصر ودورها فى نظم ورسوم دولة الخلفاء الفاطميين فى مصر، ص ٢٤٥، وما بعدها.

ما منحه أمير الإسكندرية المؤتمن لقاضيها مكين الدولة بن حديد، حيث خلع بذلة مذهبة بطيلسان مقور، وثياب حرير، وقدم له دابة بمركب حلى ثقيل، ثم خلع عليه فى اليوم الثانى والثالث كذلك، وخلع على أخيه حلتين مكللتين مذهبتين ورزقه فيها شقق حريرية مما يختص بالنساء، وأنعم على كل من حواشيه وأصحابه[١]. وفى هذا صورة واضحة لما كان ينعم به حكام الأقاليم من ثراء وترف، وحياة منعمة مكنتهم من منح عطاياهم لمن يريدون من جلسائهم ومصطفيهم، والذين حرصوا على عقد مجالس تضمهم.

ثروات حكام الأقاليم :-

أما عن ثروات حكام الأقاليم، فقد أمدنا المقريزى بمثال واضح لذلك، حيث قال: "وفيها – يعنى سنة تسع عشرة وخمسمائة، قبض الخليفة الآمر على وزيره المأمون فى ليلة السبت لأربع خلون من شهر رمضان. وقبض على اخوته الخمسة واعتقلهم[٢]... ووجد لأخيه المؤتمن أربعين سرجا على ذهب ثلاثمائة صندوق فيها كسوة بدة ومائتى سلة ما بين بلور محكم وصينى لا يقدر على مثلها، ومائة بدنية ، ومائتا بدنية مملوءة كافور قنصورى، ومائة سفط مملوءة عودا، ومن ملابس النساء ما لا يحصى، حمل جميع ذلك إلى القصر"[٣].

كان هذا مثالا لثروة واحد من حكام الأقاليم المصرية، والذى يمكن من خلاله التعرف على مدى ما نعم به هؤلاء من ثراء، قل أن نجده فى عصر من العصور الأخرى. والحقيقة أن الحياة التى عاشها هؤلاء، وما نعموا به من ثراء، كان أمرا مرتبا له من قبل حكومة الخلفاء الفاطميين بمصر، التى حرصت على منح هؤلاء الرواتب العالية، فضلا عن الخلع والعطايا الأخرى، حتى يحيوا حياة مترفة، تمكنهم من أداء مهامهم على الوجه الأكمل.

---

(١) المقريزى : اتعاظ، ج٣، ص ٩٩.

(٢) وقيل أن سبب الاعتقال أن المأمون بعث إلى الأمير جعفر ابن المستعلى، أخى الآمر يغريه بقتل أخيه الخليفة، ووعده أن يعتمد مكانه فى الخلافة، فلما تعذر ذلك بينهما بلغ الشيخ الأجل، أبا الحسن على بن أبى أسامة، كاتب الدست، وكان خصيصا بالآمر قريبا منه، وكان المأمون يؤذيه كثيرا، فبلغ الخليفة الحال، وبلغه أيضا أنه بلغ نجيب الدولة أبا الحسن إلى اليمن وأمره أن يضرب السكة ويكتب عليها الإمام المختار محمد بن نزار.المقريزى: اتعاظ، ج٣، ص ١١٠.

(٣) المقريزى : نفس المصدر، والجزء، والصفحة.

حكام الأقاليم والرعية:

أما عن دور حكام الأقاليم فى حياة الرعية، فقد قام هؤلاء بدور لا يستهان به فى هذا المجال، شمل الكثير من جوانب حياتهم، خاصة مع اتصالهم المباشر بهم، وقد احتوت سجلات تقليد حكام الأقاليم على الكثير من الأوامر والتعليمات التى تخص هؤلاء وحياتهم[١]. هذا بخلاف الأوامر والتعليمات التى كانت تخرج تباعا لحكام الأقاليم من الحكومة المركزية فيما يخص هؤلاء وحياتهم ومصالحهم، من ذلك ما أخرجه الوزير بدر الجمالى من منشورات لولاة الأقاليم ليستجيبوا لاحتياجات الأساقفة[٢] كما يذكر ابن المقفع " أن الأمير الأوحد بن بدر الجمالى الذى أقطعه أباه الإسكندرية قرب إليه الرهبان، وشملهم بعطفه ورعايته "[٣]. ومن هذا أيضا ما ذكر عن الصالح طلائع بن رزيك وزير(المسلم) الخليفة الفائز، حيث ورد أن هذا الوزير أنعم على دير أبى سويرس من ديارات الصعيد، فأطلق للدير مضافا إلى إلى المقرر له عدة أفدنه من الأرض الزراعية، لأن أحد رهبان الدير بشره بتقلده لمنصب الوزارة، وهو إذ ذاك واليا على الصعيد[٤].

ومن مشاركة حكام الأقاليم فى الحياة الاجتماعية أيضا، وخوفهم على الرعية ورعاية مصالحهم. ومنع الضر عنهم، واتخاذ الوسائل اللازمة لهذا بناء على طلب من الحكومة المركزية، ما أورده المقريزى عن التاجر الذى عمل فرح ابنته فى إحدى الدور المعدة لذلك وما حدث من تعدى أهل الدار على حرمة هذا التاجر، ثم مطالبة الوزير للوالى بتأديب من تعدى[٥] ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل إن من حكام الأقاليم من لم يكتف بما يأتى له من أوامر وتعليمات من الحكومة المركزية، فأزاد من عطفه وحمايته ورعايته للرعية، حتى شمل الأمر كل طوائف وعناصر إقليمه، بما فيهم أهل الذمة، وحتى لو كان ذلك مخالفا لأوامر وتعليمات الحكومة المركزية، ومن هذا ما ذكره ابن المقفع من أن الحاكم بأمر الله لما

(١) انظر نسخ منها فى الملاحق.

(٢) د. سلام شافعى : أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى والأيوبى، ص ٢٣٦.

(٣) ابن المقفع : تاريخ البطاركة، ج٢، ص ١٩١.

(٤)د. سلام شافعى: أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى والأيوبى، ص ٢٥٨. نقلا عن أبى صالح الأرمنى.

(٥) عن هذا بالتفصيل. وما أمر به الولاة تجاه الرعية فى مثل هذه المواقف، وما اتخذ فيها من إجراءات انظر الفصل الثالث، ص (١٥٩).

ضيق على النصارى ومنعهم من عمارة البيع والكنائس، بل أجبرهم على التخلى عن دينهم، كان ولاة الأقاليم يرفقون بهم، سواء ذلك بدون مقابل أو بغيره، حيث لم يأل النصارى جهدا فى إقامة شعائرهم " فكانوا يسألون الولاة ويبرطلوهم بالدنانير الكثيرة، والهدايا حتى يفسحوا لهم أن يتقربوا فى الليل سرا فى الكنائس المهدمة الشاسعة، ويبتون فيها ليالى الأعياد الكبار ليصلوا ويتقربوا فى الليل " [(١)] ومن ذلك ما فعله الأمير سنان الدولة بن كابر الكتامى والى مصر، الذى كان يحب النصارى ويعطف عليهم. كذلك الأمير المؤيد حصن الدولة أبو تراب حيدرة بن ميرو الكتامى الدمشقى والى الإسكندرية الذى كان يحب النصارى ويراعى كنائسهم، حتى أنه لما أمر اليازورى بغلق البيع والقبض على جميع مالها، ومطالبة جميع النصارى بالإسكندرية بعشرين ألف دينار، طلب الأمير منهم أن ينقلوا جميع ما فى بيعهم، وفعلا تم هذا، فلما كان بالغداة جلس وأحضر القاضى والشهود، ومتولى الترتيب، وأظهر الكتاب وأمرهم أن يمضوا إلى البيع ويثبتوا ما فيها، ويحطاطوا عليه، فمضوا وعادوا إليه بإثبات ما وجدوه، وهو شئ يسير، فقال : " إن كان هذا موجود فى كنائسهم وبيعهم الكبيرة فكيف يكون هؤلاء النصارى، ومن أين لهم المال الملتمس منهم، وكتب بذلك إلى الوزير، ولم يزل يردد رسله إليه إلى أن استقر الحال على ألفى دينار، فشكر له النصارى ذلك، ثم شكى له النصارى ثانيا من غلق البيع وانقطاع الدعاء له فى أوقات الصلوات والقداسات، فدفع لهم مفتاح كنيسة مارى جرجس[(٢)]، وقال لهم امضوا وافتحوا هذه الكنيسة وصلوا فيها سرا، وادعوا لى. فأقاموا هكذا حتى قسط عليهم المبلغ المطلوب بل وساعدهم فى جمعه[(٣)]. كما قام هذا الأمير بحماية النصارى وحراستهم من اعتداء المسلمين عليهم أثناء إحدى احتفالاتهم، وفى هذا يقول ابن المقفع : " وكان رسم النصارى بالإسكندرية أن يخرجوا الزيتون يوم عيد الشعانين فى الليل، ويشقوا بها المحجة والسوق من بيعة القديس أبو سرجة إلى بيعة الطير بالدعاء والقراءة، إلى أن جرى من المسلمين ما أوجب أن أقاموا

(١) ابن المقفع: تاريخ البطاركة، ج٢، ص ١١٣.

(٢) كنيسة مارى جرجس : هى قديما بيت انيانوا أول البطاركة وهو البيت الذى دخله مارى جرجس البشير من أول يوم دخل الإسكندرية. ابن المقفع : تاريخ البطاركة، ج٢، ص ١٤٨.

(٣) ابن المقفع : تاريخ البطاركة، ج٢، ص ١٤٨: ١٤٩.

خمسة عشر سنة ما طافوا بها، فلما ذكرنا ذلك للأمير حصن الدولة أمر باحترامها على جارى العادة، وأنفذ معنا أصحابه وأوصاهم بأن يفعلوا ما يقوله لهم، وأى دار رمى منها حجر يختم بابها ويعلم بها، وأى إنسان تكلم من المسلمين يمضوا به إلى الحبس، ونادى مناديه بذلك فى المدينة، وأخرجناها تلك الليلة، وطفنا بها المدينة، بالقراء والصلبان والبخور، كما جرت العادة القديمة، وذلك فى سنة أربع مائة وأربعة الخراجية "[1].

كانت هذه أمثلة بسيطة لما قام به بعض حكام الأقاليم تجاه الرعية، والذى شمل الجميع حتى الأقباط، منهم وقد اتسمت هذه السياسة غالبا العطف والتسامح، وقد وردت فى أكثرها بالنسبة لعلاقتهم بأهل الذمة، لنرى مدى ما وصل إليه تسامحهم وعطفهم، الذى شمل الجميع حتى غير المسلمين[2].

ومن هذه النظرة على الحياة الاجتماعية وحكام الأقاليم، نكون قد تعرفنا على أهم مظاهر الحياة الاجتماعية فى فترة الدراسة، ثم حكام الأقاليم ومظاهر حياتهم الاجتماعية من حيث المسكن، والفرش وكذلك طعامهم، وشرابهم، وخدمهم، ومجالسهم، وعطاياهم، ومنحهم، وحتى ثرواتهم، وسبب ما نعموا به من ثراء، ثم دورهم فى حياة الرعية، وعلاقتهم بهم.

ثالثا: الحياة العلمية والعمرانية:

١- أهم سمات الحياة العلمية.

٢- حكام الأقاليم : والحياة العلمية.

٣- جهود حكام الأقاليم فى الحياة العمرانية.

أهم سمات الحياة العلمية:

أدركت الكثير من الأمم فضل العلم، وذلك طاعة لمنهج القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وعرفت ماله من عظيم النفع، وكبير الأثر فى تهذيب النشء، وتقدم صناعة

(١) ابن المقفع : السابق، ص ١٤٩.

(٢) عن أهل الذمة وما تمتعوا به من تسامح إبان العصر الفاطمى، انظر د. سلام شافعى : أهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول، ص ٢٧، ما بعدها.

التعليم، فتنافس علماؤها فى جمع فوائده، ووضعوا فيه الكثير من الكتب الجليلة، والتى كان من سماتها أن ساعدت العلماء والطلاب على البحث والتنقيب[١]. ومنذ أن استقر الفاطميون بأرض مصر، وهم يهتمون اهتماما كبيرا بالعلم[٢]، حيث عنوا بالحياة الأدبية عناية فائقة، وتعهدوها بالرعاية حتى صارت قدما نحو التطور والازدهار. وقد كان اهتمامهم بجميع ميادين العلم والأدب عاملا أساسيا، ومؤثرا فعلا من عوامل ومؤثرات قيام النهضة العليمة فى مصر آنذاك[٣]، تلك النهضة التى جعلت من الدولة الفاطمية من أعظم الدول التى عاشت فى مصر، كما جعلت لجهود خلفائها أثر كبير فى الحضارة الإسلامية[٤].

ويرجع تشجيع الفاطميين للحركة العلمية والأدبية فى مصر، وازدهارها آنذاك للعوامل الآتية:-

١- أن كثير من الخلفاء الفاطميين- خاصة الأوائل- كانوا أرباب علم وفضل، ويحبون العلم والأدب حبا حقيقيا[٥]. ويعرفون قدر العلماء والأدباء، ففتحوا أبواب قصورهم للعلماء وطلاب العلم، وأباحوا لهم جميعا الاطلاع على الكتب المختلفة بمكتبة القصر[٦]. بل وأقاموا الدروس وأنفقوا عليها، حتى يذكر المقريزى :"أنه أول ما عرف إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر كان فى خلافة العزيز بالله الفاطمى "[٧].

٢- الثراء والرخاء اللذين نعم بهما الخلفاء، كذلك البلاد[٨]، مما مكنهم من الإغداق بسخاء على العلماء والطلاب[٩].

(١) د. خطاب عطية : التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول، ص ٧.
(٢) د. محمد جمال الدين سرور: مصر فى عصر الدولة الفاطمية، ص ٢١٧.
(٣) د. سهام أبو زيد : تاريخ الأرمن، ص ١٤٨.
(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا، ج١ ص ٥، د. حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٤٢٧.
(٥) خطاب عطية : التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول، ص ٦٧.
(٦) حسن إبراهيم حسن: المعز لدين الله، ص ٢٢٤: ٢٢٥.
(٧) المقريزى : الخطط، ج٤، ص ١٩٢.
(٨) حسن إبراهيم حسن : المعز لدين الله، ص ٢٢١، أحمد النجار : الإنتاج الأدبى بمدينة الإسكندرية، ص ٤١.
(٩) د. المناوى : الوزارة والوزراء، ص ١٠٣.

٣- قامت الخلافة الفاطمية بمصر لتنافس الخلافة العباسية فى بغداد، وتحاول أن تقضى عليها، حتى كان بين الخلافتين صراع عنيف، استغل فيه كل سلاح ممكن من الأسلحة، ومن الأسلحة التى استعان بها الفاطميون وبرعوا فيها سلاح العلم والأدب[١].

٤- كان العلم دعامة من دعائم العقيدة الشيعية، وبما أن هذا المذهب يقوم على العلم والنقل، فإنهم كانوا فى حاجة ماسة إلى العلم، فبقوة الحجة، والجدل، والمناظرات، استطاعوا نشر مذهبهم واقناع المستجيبين لهم[٢].

٥- كما كان لاستقرار الأحوال السياسية فى بداية حكمهم أثره فى بروز دور الحركة العلمية بمصر[٣].

٦- اتخذ الفاطميون الشعر وسيلة لدعوتهم السياسية والتعبير به عن آرائهم والإشادة بدولتهم، وفضائلهم، والدفاع عن قضاياهم السياسية، وانتصاراتهم العسكرية[٤]، ومن أشهر شعرائهم الأمير تميم بن المعز صاحب الديوان المشهور.

٧- إنشاء المؤسسات العلمية المختلفة من مساجد ومدارس ودور حكمة، وقد حوت هذه المعاهد العلمية العديد من المدرسين والعلماء لإلقاء الدروس، وتربية الطلبة[٥]. مثل الجامع الأزهر، والمساجد الأخرى، ودار العلم أو دار الحكمة.

٨- لم يقتصر الاهتمام بالعلم وتقريب العلماء على الخلفاء فحسب، بل تبعهم فيه الوزراء والولاة والأمراء[٦]، حتى أصبحت قصور الكثير منهم بمثابة منتديات للعلم والعلماء.

كانت هذه أبرز العوامل التى ساعدت على ازدهار الحركة العلمية والأدبية فى البلاد، والتى نتج عنها نهضة علمية عظيمة، ولا أدل على ذلك من كثرة العلماء والأدباء الذين حفلت بهم البلاد آنذاك[٧]، سواء أكانوا من أهلها أو الوافدين عليها، حتى أصبحت

(١) د. المناوى : السابق نفسه.
(٢) د. سهام أبو زيد : تاريخ الأرمن، ص ١٤٨.
(٣) د. السيد عطا : تاريخ الغربية ، ص ٣٥٠.
(٤) د. سهام : السابق، ص ١٤٩.
(٥) خضر أحمد عطا الله : الحياة الفكرية فى مصر، ص ١٧٨.
(٦) د. المناوى : الوزارة والوزراء، ص ١٠٣، ١٠٥.
(٧) المناوى : الوزارة والوزراء، ص ١١٠.

القاهرة– عاصمة الدولة– مركز إشعاع جذب إليه المثقفين والفنانين، من المشارقة و المغاربة، وازدهرت حركة التأليف فى مختلف العلوم والآداب، حيث زخر العصر الفاطمى بمجموعة عظيمة من العلماء فى العلوم والآداب المختلفة(١)، ففى مجال العلوم الدينية ظهر علماء فى القراءات والتفسير والحديث والفقه والتصوف(٢) وغيرها، وكذلك فى العلوم العربية ظهر علماء فى النحو والأدب والشعر(٣) بمختلف أغراضه. وإلى جانب هؤلاء جميعا ظهر علماء فى التاريخ والجغرافيا والرحلات(٤)، والعلوم القديمة(٥)، هذا فضلا عن الفلسفة(٦)، الفلسفة(٦)، والطب(٧)، والرياضيات(٨)، والفلك والنجوم(٩)، حتى الفن أخذ هو الآخر قسطاً قسطاً وافراً من العناية والاهتمام والتقدير(١٠)، وعلى هذا ظهرت نهضة علمية شارك فيها الكثير من طوائف الشعب وعناصره(١١)، حتى العامة(١٢)، وإذا كان الحال على ذلك فما بالنا بحكام الأقاليم، والقائمين على أمورها، والمسئولين عمن فيها.

(١) د. حسين دويدار: الحياة الاجتماعية، ص ٤٨٥.

(٢) انظر فى ذلك الأدفوى: الطالع، ص ٢٦٢: ٢٦٥، ٢٣٥: ٢٣٨، ٤٠٩: ٤١٤، ٥٥١، ٥٥٢: ٥٥٥، ٦٤٣، د. حسين دويدار : السابق،ص ٤٨٥: ٤٨٧.

(٣) الأدفوى : الطالع، ص ٢٦٢: ٢٦٣، ٢٣٥: ٢٣٨، ٤٠٨: ٤١٤، ٥٥٢، ٥٥٥: ٥٥٨، ٦٧١: ٦٧٢، أحمد النجار: الإنتاج الأدبى بمدينة الإسكندرية، ص ٧٣: ٧٥.

(٤) د. المناوى: السابق، ص ١٢١، حاشية ١، د. حسين دويدار : السابق، ص ٤٩٣: ٤٩٦.

(٥) الأدفوى : الطالع ، ص ٢٧٠.

(٦) أحمد النجار: الإنتاج الأدبى، ص ٥٥، د. حسين دويدار: السابق، ص ٤٩٧، وما بعدها.

(٧) الأدفوى : الطالع، ص ٤٧٤، د. خطاب عطية : التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول، ص ١٠٠، د. حسين دويدار : السابق، ص ٤٨٨: ٤٨٩.

(٨) المسبحى : تاريخ مصر، ص ٥٧، د. المناوى : الوزارة والوزراء، ص ١٠٧، د. حسين دويدار : السابق، ص ٤٩١.

(٩) د. حسين دويدار : السابق، ص ٤٩٢.

(١٠) د. زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين، ص ٨٠: ٨١، د. المناوى : الوزارة والوزراء، ص ١٢٦.

(١١) مما يستحق الالتفات أن النشاط الفكرى فى مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين لم يكن مقصورا على الرجال وحدهم، بل شاركت النساء أيضا مشاركة فعالة، فى مختلف فروع العلم والمعرفة. فظهرت نساء شاعرات وكذلك محدثات حصلن على إجازات وروى عنهن الكثير. د. الشيال : أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى، ص١٥٣: ١٥٤.

(١٢) على الأرجح أن العامة الذين لا يستطيعون أن يتخذون لأبنائهم مؤدبين كانوا يرسلون أبناءهم إلى الكتاتيب التى كانت لا تخلوا منها قرية ولا مدينة. د. خطاب عطية : التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول، ص ٧٠.

جهود حكام الأقاليم فى الحياة العلمية :-

عرفت الأقاليم المصرية فى عصر الخلفاء الفاطميين عددا من حكام الأقاليم من المحبين للعلم، والمقربين للعلماء، والعاقدين لمجالس العلم، والتى تضم العديد من العلماء والأدباء والشعراء، فضلا عن غيرهم من المحبين للعلم والأدب، كما كان من بين حكام الأقاليم أنفسهم العلماء والأدباء والشعراء. ونتج عن هذا أن ظهرت بالأقاليم نهضة علمية رائعة، تجلت آثارها فيما أنشئ من مدارس ومساجد على يد حكام الأقاليم آنذاك، وفى الكم الهائل من العلماء والأدباء والشعراء ممن أنتجتهم الأقاليم آنذاك، وكذلك فمن وفد إليها من علماء وأدباء وشعراء، نظرا لما لاقوه من تشجيع وإكرام.

حكام الأقاليم والمجالس العلمية :-

تدلنا الشواهد التاريخية على أن هؤلاء الولاة أو معظمهم كانوا محبين للآداب والعلوم، وأن مائدتهم كانت تحفل كل يوم بالأدباء والعلماء.

فمن المعروف أن الكثير من الخلفاء الفاطميين كانوا محبين للعلم والأدب،وحريصين على عقد مجالسه بقصورهم، بل جعلوها تشتمل على المكتبات الفخمة، وأن الوزراء قد تشبهوا بهم، وترسموا خطاهم فى هذا السبيل(١)، وعليه فليس من المستبعد أن يتبعهم فى هذا حكام الأقاليم، ولا أدل على ذلك مما نقله عمارة اليمنى عن مجالس هؤلاء وحبهم للعلم والأدب، وحرصهم على مجالسة ومصاحبة العلماء والأدباء، فضلا عن الإغداق عليها بسخاء لا مثيل له. كما سيأتى.

ومن حكام الأقاليم الذين ضربوا أروع الأمثلة فى هذا المجال، الأمير "رضوان بن ولخش "، الذى نشأ أساسا فى بيت علم وفضل، وقد تحدث المقريزى فى خططه عن هذا قائلا "كان من أعيان الفضلاء والأدباء، وضرب على طريقه ابن البواب وأبى على بن مقلة، وكتب عدة ختمات، وكان كريما شجاعا يلقب بفحل الأمراء "(٢).

(١) د. المناوى : الوزارة والوزراء، ص ١٢٧.

(٢) المقريزى : الخطط ، ج٣، ص ٣٢٩: ٣٣٠.

obeikandl.com

ومن حكام الأقاليم الذين عرفوا بحبهم للعلم والأدب ومثابرتهم على مطالعة الكتب الأمير" أبو قسطة الأرمنى " والى الإسكندرية وعنه يقول المقريزى : " وكان قسطة هذا من عقلاء الأمراء المائلين إلى العلم، المثابرين على مطالعة الكتب، وأكثر ميله إلى التواريخ وسير المتقدمين، وكان مسجده بعد مسجد الديلمى..."[١] ويذكر " السلفى "– أحد علماء الإسكندرية المشهورين– أنه نقل عنه بعض الأخبار فى " معجم السفر "[٢]. ومنه يتضح مدى حب هذا الأمير للعلم والأدب، الأمر الذى جعله فى زمرة العلماء والأدباء، بل أوصله إلى أن نقل عنه العلماء المشهورون أمثال " السلفى " وغيره.

ومن حكام الأقاليم الذين ضربوا أروع الأمثلة فى هذا المجال، وأفاضت المصادر والمراجع فى الحديث عنهم وعن حبهم للعلم، ومجالسهم العلمية، الصالح " طلائع بن رزيك " هذه الشخصية الأرمينية التى وصلت لحكم بعض الأقاليم المصرية فى عهد الخليفة الظافر، حيث كان واليا على " منية ابن الخصيب ". وعن طلائع بن رزيك " وحبه للعلم. يقول المقريزى : "...كان محبا لأهل الأدب جيد الشعر، رجل وقته فضلا وعقلا وسياسة وتدبيرا،... وكان محافظا على الصلوات فرائضها ونوافلها، شديد المغالاة فى التشيع "[٣]. وعنه قال أيضا : " كان – يعنى الصالح– يحب الأدب وأهله، ويكثر من جليسه، ويبسط من أنيسه، وكان كرمه أقرب من الجزيل منه إلى الهزيل..."[٤] وعنه أيضا : "... كان – يعنى الصالح– فاضلا محبا لأهل الفضائل... وكان لأهل العلم عنده نفاق، ويرسل إليهم العطايا..، وكان وافر العقل، رضى النفس، بصيرا بالتجارب، عالما بأيام الناس .."[٥].

كما أورد عمارة اليمنى فى كتابه النكت، العديد من النصوص التى تصور مواقف واقعية من حياة طلائع بن رزيك، والتى تؤكد على مدى حبه للعلم والعلماء، حقيقة أنها كلها

(١) المقريزى : الخطط ،ج٣، ص ٣٢٩. وعنه أيضا انظر د. سهام أبو زيد : تاريخ الأرمن، ص ١٥٩.
(٢) د. جمال الدين الشيال : أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى، ص ١٥٤.
(٣) المقريزى : الخطط، ج٤، ص ٨٢.
(٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ٢٥٣.
(٥) المقريزى : اتعاظ الحنفا،ج٣، ص ٢٤٨: ٢٤٩.

تنتمى لفترة وزارته[١]، إلا أنها تؤكد كل التأكيد على مدى حبه للعلم، وهو الأمر الذى كان خصلة من خصاله الثابتة اللازمة له، لا الطارئة بعد توليه الوزارة، بل يمتد جذورها إلى ما هو أبعد من هذا، وفى هذا يقول عمارة عن الصالح:" كان مرتاضا حصيفا قد لقى فى ولاياته– أو ولايته– فقهاء السنة سمع منهم "[٢]. وعنه أيضا يقول " لم تكن مجالس أنسه تنقطع إلا بالمذكرة فى أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفى مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته "[٣].

ودليلا على هذا أيضا حب أبناء الصالح أنفسهم للأدب ومجالسه[٤]. وهذا تأكيد على حب الصالح للعلم حتى أنه ربى أبناءه على حب العلم والشعر، وغرسه فيهم، كما عودهم على مجالسة العلماء والشعراء.

ولم يقف طلائع فى مجال العلم والأدب عند حبه لهما، ولأهلهما ومجالسهما فقط، بل نراه هو نفسه فقيها متعمقا فى علوم الشيعة، ألف كتابا فيه سماه " الاعتماد فى الرد على أهل العناد "[٥] وهو كتاب فى فقه الشيعة، يتضمن الأحاديث الواردة فى أمانة على بن أبى طالب.

كما كان طلائع شاعرا. ومن شعره ما أورده عمارة :

قل للفقيه عمارة يا خير من ... أضحى يؤلف خطبة وخطابا
اقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى ... قل حطه وادخل إلينا البابا
تلق الأئمة شافعين ولا تجد ... إلا لدينا سنة وكتابا
وعلى أن يعلو محلك من الورى ... إذا شفعت كنت مجابا[٦]

(١) عن هذا بالتفصيل : انظر عمارة اليمنى: النكت، ص ٤١، ٤٥، ٤٨، ٦١، ٩٠، ٩١، ٩٨: ٩٩،١٢٣. المناوى : الوزارة والوزراء، ص ١٠٥، ١٢٣: ١٢٤.
(٢) عمارة : النكت، ص ٢٤٥.
(٣) عمارة : النكت، ص ٤٨.
(٤) عمارة : النكت، ص ٩٣: ٩٤.
(٥) المناوى : الوزارة والوزراء، ص ١٠٥.
(٦) عمارة : النكت، ص ٤٥.

ومع هذا لم يكن طلائع شاعرا مفردا، بل كان متواضعا كل التواضع لم يتحرج من أن يدفع بأشعاره إلى من هو أشعر منه كى يصلحه ويهذبه[١].

كما أورد عمارة أسماء العديد من حكام الأقاليم ممن أحبوا العلم والأدب، وحرصوا على عقد مجالسه مجزيلى العطايا للحاضرين من هؤلاء. الأمير الأجمل سيف الدين الحسين بن أبى الهيجاء صهر الصالح الذى كان محبا للشعر والشعراء، وكانت له مجالسه المنعقدة فى هذا المجال تشبها بالصالح[٢].ومن هؤلاء الأمير " عز الدين حسام " وهو يضرب من خؤولة الصالح لأمه. وقد تنقل هذا الأمير فى حكم الأقاليم المصرية زمن الخلفاء الفاطميين، وعنه يقول عمارة اليمنى: "... همته عصامية، وراحته غمامية، أول معرفتي به أنى فى سنة إحدى وخمسين أقبلت رسولا من أمير مكة، ووجدته واليا بعض مراكز الصعيد، وقد سمع بخبري بقوص فأعد لى ضيافة على ساحل النيل، وصلت معى لكثرتها إلى القاهرة، ثم لم يلبث أن صرف، فتأكدت المعرفة والصحبة، وحين قدمت فى الطريق الثانية، أرسل إلى منزلي ذهبا وغلة وغنما... ولما ولى البحيرة استدعاني بكتاب، واستأذن الصالح فى انحداري إليه، فوصلني بعير وثياب وغلة وأغنام ودواب وفرس، تزيد قيمة الصلة على خمس مائة دينار، ولم أقم عنده سوى ليال ثلاث "[٣] ويذكر عنه أيضا أنه كان محبا لحضور المجالس العلمية والأدبية، والاجتماع بمحبي العلم والأدب مثل طلائع بن رزيك وجلسائه[٤]. كما كانت له هو مجالسه العلمية والأدبية الخاصة به، والتى كانت تستغرق وقتا طويلا، وقد كان هذا الأمير حريصاً كل الحرص على أن يجعل هذه المجالس شاملة للأمراء والأدباء والشعراء[٥]. والذين والذين كان من بينهم عمارة كما اتضح مما أورده من نصوص[٦]. ولم يتوقف أمر هذا الأمير عند هذا الحد فقط، بل كان هو نفسه شاعرا مجيدا، وعنه يقول صاحب الخريدة: " الأمير

(١) عمارة : النكت، ص ٤٨: ٤٩.
(٢) عمارة : النكت، ص ١٢١.
(٣) عمارة : النكت، ص ١١٠.
(٤) عمارة : النكت، ص ٣٥، ٩٩.
(٥) د. سهام أبو زيد : تاريخ الأرمن، ص ١٦٦.
(٦) عمارة : النكت، ص ١١١.

أبو المهند حسام بن مبارك بن فضة العقيلى، لم يكن فى مصر أفخم منه شأنا، وأعظم منه سلطانا أيام سلطنة ابن رزيك... ومن شعره أبيات عاتب بها خاله منها:

أجلك أن يلم بك العتاب ... وأن يخفى ..وحشاك..الصواب
وإنى فى يمينك حين تسطو ... حسام لا يغلله الضراب
ولم أرسلتنى سهما مصيبا ... فأحرق ضدكم منى الشهاب"[1]

ويؤكد عمارة هذا المعنى بقوله " وعمل– يعنى الأمير عز الدين حسام شعرا فى الصالح وسيره على يدى "[2]. وعنه يقول الأستاذ الدكتور المناوى :" أنه كان شاعرا مثل خاله "[3].

كما كان الأمير " ورد " غلام الصالح من بين حكام الأقاليم الذين عرفوا فى ذلك الوقت، واشتهروا بحبهم للعلم ومجالسه، حقيقة أنه فى بداية أمره لم يكن من المحبين للعلم، لكن حضوره مجالس العلم أعطاه الفرصة للاستزادة من مهارات وقدرات المحاضرين العلمية حتى أصبح مثلهم[4]، وعنه يقول عمارة "... وأما ورد فمازال عز الدين يصقل صداه، ويفتح له باب هداه حتى تشبه وتنبه وأنشده عز الدين لابن جيوشى:–

إن المدائح فى المحافل زينة ... ما حرمت إلا على البخلاء

فتفجرت ينابيع ورد كرما، وآلت ذبالة فهمه خرما، فواصلنى بالبر إلى أن مدحته بقصيدة أولها:–

خذ يا زمان من يدى أملى ... لا روعت سربك الأصماع من قبلى إذا
ولا مددت إلى أيدى بنيك يدى ... فلا وآلت كفى من الشلل

فأجزل له العطاء–... ثم قتل الصالح فخرج والياً جزيرة بنى نصر فقلت أودعه:

(١) العماد : الخريدة، ص ١٨٦.
(٢) عمارة : النكت، ص ١١٠.
(٣) د. المناوى : الوزارة والوزراء، ص ١٢٣.
(٤) د. سهام أبو زيد : تاريخ الأرمن، ص ١٦٦.

تناولـــت المكـــارم والمســـاعى بـــأمرى ســـــاعد وأتـــم بـــاع"[1]

من خلال النص يتضح لنا أن هذا الأمير كان من بين حكام الأقاليم المحبين للعلم والأدب ومجالسهما، المجزلين العطايا لحاضرى مثل هذه المجالس كما بادله العلماء والأدباء مشاعر الود والحب، لدرجة أدت بأحدهم وهو عمارة أن يعد قصيدة، وبعث بها خلف هذا الأمير بعد خروجه لتولى أحد الأقاليم.

ومن أمثال هؤلاء أيضا الأمير " على بن الزيد " الذى تحدث عمارة اليمنى عنه، وعن كرمه وجوده، الذى شمل به أمثاله حيث يقول : ".. فسير إلى ابن الزيد بثلاثين دينارا ، وستة أباليج سكر، وبدلة ثياب مذهبة، ومعها ثوب ديباج أحمر بأزرار ذهب وخمس شمعات موكبية، وعشرة أرؤس غنم، ومعها رقعة بغير خطه فيها بيت للمتنبى ... وولى المحلة فقلت أودعه:-

قـــل للمكـــرم والألقـــاب واقعـــة على علاه وقوع النقش فى الحجر

وصادفت عند وداعه رسولا كان له بدمياط يستعمل مشروبا، فدفع لى مما وصل إليه فى تلك الساعة شقه خزائنى ولفافة، وتلثيمة طولها ثلاثون ذراعا... ولما صرف هدانى بألطاف جزيلة منها بدلة مذهبة الثوب والعمامة "[2].

ومن هؤلاء أيضا والى الإسكندرية (٥٥٨هـ/١١٦٢م) الأمير " الظهير مرتفع الخلواص " الذى أحب الشعراء لدرجة وصلت به إلى مصاحبة بعضهم ومصادقتهم، وكان من بين المصاحبين له " عمارة اليمنى " وفى هذا يقول عمارة" وبسبب ما كان بين وبين الظهير مرتفع الثائر عليه من أكيد الصحبة، وذكر المهذب فيما حكى لى عنه أن " ضرغاما " قال : غلط عمارة معى يوما. غلطة فى شهر رمضان الذى قتل فيه الصالح أنا أحفظها عليه، وهى أنى قلت له أخرج معى إلى الهدف الذى على باب البرقية، فقال أنا أكره أن أرى البرقية

(١) عمارة : النكت، ص ١٥١: ١٥٤.
(٢) عمارة : النكت، ص ١٤٨: ١٤٩.

ومرتفع فى الاعتقال. مذ قبض عليه الصالح لم أجز بالبرقية، ولعمري لقد جرى منى هذا القول ولم أعلم ما يؤول إليه الحال ولا ما فى نفس بعضهم من بعض "[١].

ومن بين حكام الأقاليم الذين عرفوا بحبهم للعلم والأدب أيضا الأمير " شاور بن مجير السعدى " الذى عرف بكثرة مجالسته للعلماء والأدباء، حتى وصل الأمر أحيانا إلى مؤاكلتهم معه فى إناء واحد، كما كان يرفع من شأنهم، ويقضى حوائجهم على أكمل وجه[٢].

وحتى فى فترات الاضطرابات والفتن، لم يكن هناك إهمال للعلم والأدب، أو بعد عنهما وعن أهلهما، ومن حكام الأقاليم الذين اشتهروا بهذا أواخر العصر الفاطمى. الأمير همام " أخو ضرغام والذى ولى الإسكندرية فى وزارة أخيه.وعنه يقول عمارة اليمنى: " لما داخلنى الخوف من ضرغام انقطعت إلى أخيه همام..."[٣]، كما يذكر أيضا أنه لقى هماما. فى وزارة أخيه الأولى– بقصيدة. منها فى حق آل شاور، جريا على عادته فى حفظ من مضت أيامه:–

مـآثر لـو تكرنـا شـرح جملتهـا ... غنيـت فيهـا مـن التفصـيل بالجمـل
منهـا الجميـل الـذى أبقيـت سـيرته ... فـى آل شـاور حتـى سـار كالمثـل
مازلـت توسـعهم بشـرا وتكرمـة ... حتـى كـأن ليـالى القـوم لـم تـزل[٤]

كما يذكر أن الحافظ السلفى كانت له صداقات ومناقشات مع بعض أمراء الإسكندرية المعاصرين له، والذين عرف عنهم حب العلم والأدب، وعقد المجالس والمناظرات له، بل والاشتراك فيها. وكان من بين هؤلاء الأمير " همام بن سوار اللخمى "، وينقل عن السلفى أنه قال : " قال لى يوما الأمير همام بمحضر من جماعة من الأمراء. ما الخلفاء عندى سوى العلماء..." وكأنه كان يستدرجه بهذا ليعرف رأيه فى الخلفاء الفاطميين، لكن السلفى الشافعى المذهب – استطاع أن يخرج من هذا المأزق بمنتهى اللباقة، ومع

(١) عمارة : النكت، ص ٧٧.
(٢) عن هذا انظر عمارة : النكت، ص ٩٠: ٩١.
(٣) عمارة اليمنى: النكت، ص ٧٧.
(٤) عمارة اليمنى: النكت، ص ١٣١: ١٣٢.

الفوز برضى الجميع[١].هكذا يتضح مدى حب هذا الأمير للعلم والأدب والذى لم يتوقف عند حد مصاحبة العلماء والأدباء، أو عقد مجالس لهم والإغداق عليهم، بل وصل الأمر إلى الاشتراك فى هذه المناظرات.

ومن العرض السابق يتضح أن الكثير من حكام الأقاليم وأبنائهم وذويهم، كانوا أهل علم وأدب، ومحبين للعلم وأهله، ومشجعين للعلماء، جاهدين فى نشر العلم، وذلك عن طريق محاورتهم ومناظرتهم.

حكام الأقاليم وإنشاء المراكز العلمية:-

أضاف حكام الأقاليم فى مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين إلى جهودهم السابقة جهودا أخرى، وهى إنشاء المراكز العلمية. كالمساجد والمدارس.

المساجد:-

بالنسبة للمساجد[٢].فمن المعروف أن المساجد فى هذه الفترة لم تكن مجرد أماكن لإقامة الصلاة، أو التعبد فقط، بل كانت بمثابة المؤسسة العلمية الأولى، وقد اتخذها الفاطميون مجالات لنشر العلم ، وخاصة ما يتصل منه بالعقيدة الشيعية[٣]. خاصة وأن المدارس لم تكن قد عرفت بعد. وعليه كانت المساجد هى المؤسسة الأولى والأهم[٤]، حيث كانت تعقد فيها حلقات علمية منظمة، يحضرها طلبة العلم ومريديه، إلى أن عرفت المدارس فى مصر الفاطمية. وإن كانت على نطاق ضيق.

وإذا كانت المساجد هى المؤسسة العلمية الأولى آنذاك فإن إنشاءها، أو المساعدة عليه، يعد من المشاركة فى الحياة العلمية فى مصر، وقد نقل لنا المؤرخون أسماء حكام أقاليم مصرية ساهموا بدور فعال فى هذا المجال، بل وأنشأوا مساجد باسمهم، من هؤلاء الأمير" سعد الدولة سارتكين الجيوشى " حاكم قوص من قبل الوزير بدر الجمالى، والذى

(١) د. الشيال : أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى، ص ١٥٥.

(٢) عن المساجد وما كانت تضم من حلقات العلم. ودورها فى الحياة العلمية انظر المقريزى : الخطط،ج٤، ص ٨١، د. خطاب عطية: التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول، ص ٩٢، على شعوط : مصر من عهد بناة القاهرة، ص ١٠٨: ١١٢، د. حسين دويدار: الحياة الاجتماعية فى مصر فى العصر الفاطمى، ص ٤٧٧: ٤٧٨.

(٣) المناوى : الوزارة والوزراء، ص ١٠٥.

(٤) عن الفرق بين المسجد والمدرسة: انظر: محمود محمود حسن أحمد : الإسكندرية فى العصر الفاطمى، ص ٢١٣: ٢١٤.

كان محل ثقة أمير الجيوش، ويذكر أنه نفس الشخص الذى أتم مئذنة جامع إسنا عام ٤٨٤هـ /١٠٨١م. وقد عثر على بقايا لوحتين تذكران الأعمال التى تم إجراؤها فى مسجد قوص[١]، وقد جاء فيهما: " (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) " بما أمر بعمله مولانا وسيدنا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاء المسلمين وهادى دعاة المؤمنين عضد الله تعالى به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته على يد الأجل المنتخب سعد الدولة تاج المعالى ذى العزيز أبى منصور سارتكين الجيوشى ابتغاء ثواب الله والدار الآخر– سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة وحسبنا الله "[٢]. وعلى هذا يتضح الدور الذى قام به هذا الأمير حتى استحق أن يذكر اسمه مع اسم الخليفة والوزير فى لوحة تذكارية لهذا المسجد. وعلى ما يبدو أن هذا لم يكن العمل الوحيد لهذا الأمير، إذ يذكر أنه وجد نص آخر مؤرخ عام ٤٧٦هـ/١٠٨٣م. ومدون أيضا باسم أبى منصور سارتكين، بل يذكر أن منطقة الصعيد آنذاك كانت كلها – على الأرجح– فى حالة تعمير. حتى إنه يوضع فى نفس الفترة إتمام مآذن مساجد إسنا،وجامع بلال قرب أسوان،وأبو الحجاج فى الأقصر[٣].

ومن حكام الأقاليم الذين شاركوا فى هذا المجال أيضا " أبو منصور قسطة الأرمنى " الذى أشارت المصادر إلى حبه للعلم والتحلى به، والذى ذكر المقريزى:" أنه بنى مسجد سمى باسمه على حافة الجبل المقابل للقلعة من الشرق إلى الغرب وقبره أمام الباب "[٤]. ومن هؤلاء أيضا الأمير " مؤتمن الخلافة " أخو الوزير المأمون البطائحى، الذى ولى الإسكندرية فى وزارة أخيه، والذى بنى مسجدا بالإسكندرية للفقيه أبى بكر الطرطوشى،

(١) محمد محمود على حسن: قوص مركز إسلامى لصعيد مصر، ص ١٢٥.وعن هاتين اللوحتين انظر ملحق الرسالة رقم(١٠)
(٢) د. عائشة التهامى: أضواء جديدة على بعض التحف التطبيقية التى عثر عليها بخفائر قوص، ص ٩٠.
(٣) محمد محمود على حسن : قوص مركز إسلامى، ص ١٢٦.
(٤) المقريزى: الخطط، ج٣، ص ٣٢٩.

صاحب كتاب " سراج الملوك "، وذلك بأمر من الوزير المأمون البطائحى، والذى علم برغبة الفقيه فى إنشاء مسجد هناك[١]، لإقامة حلقات علمية به.

المدارس :-

إلى جانب المساجد، أنشأ بعضا من حكام الأقاليم مراكز أخرى، على جانب كبير من الأهمية، ويزيد من أهميتها ومكانتها ويتضح دور حكام الأقاليم فى هذا المجال، إذا عرفنا أن هذه المؤسسات لم تكن معروفة فى مصر من قبل. وهى المدارس حيث ظهرت المدارس لأول مرة فى مصر فى عصر الخلفاء الفاطميين فى أحد الأقاليم المصرية: وهى الإسكندرية، وذلك على يد الوزير " رضوان بن ولخش "[٢]. الذى أنشأ المدرسة المعروفة " بالحافظية " نسبة إلى الخليفة الحافظ، وذلك فى سنة ٥٣٢هـ، وجعل فى تدريسها الفقيه " أبا الطاهر بن عوف "[٣]. حقيقة أنه أنشأ هذه المدرسة .وهو يتول للوزارة، لكن مما لا شك فيه أن هذا لم يكن جديدا، وأنه لم يأت من فراغ، بل أن للأمر جذوراً وترجع ولا ريب إلى زمن ولاية هذا الشخص لأحد الأقاليم من قبل، بل ربما إلى ما هو أبعد من هذا. حيث يرجع إلى أصله ونشأته.

وبعد سنوات من إنشاء المدرسة الأولى بالإسكندرية، أنشئت بها مدرسة سنية أخرى، وهى المدرسة السلفية[٤]، وأنشأها أمير الإسكندرية " ابن السلار " هذا الوالى السنى الذى شد فى مذهب أهل السنة، وقدم عليه الفقيه " الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفى "

(١) د. المناوى: الوزارة والوزراء، ص ١٢١.

(٢) مما تجدر الإشارة إليه أن هذا الوزير كان سنيا، وأن غرضه من إنشاء هذه المدرسة هو تدريس المذهب المالكى، ومقاومة المذهب الإسماعيلى- الذى هو مذهب الدولة- وحتى يعلى كلمة الإسلامى السنى فى مواجهة اتساع نفوذ أهل الذمة الذى تزايد فى العقود الأولى للقرن السادس الهجرى. وقد اختار الإسكندرية بالذات لأنها من أهم مراكز المقاومة السنية فى مصر، وملجأ كل الخارجين على الدولة الفاطمية لذا كان اختياره للإسكندرية بالذات والتى ما لبثت أن أنشئت فيها مدرسة سنية أخرى بعد حوالى أربعة عشر عاماً من إنشاء المدرسة الأولى وهى المدرسة "(العادلية). عن هذا بالتفصيل. انظر د.أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية فى مصر، ص ٢٠٠: ٢٠٢.

(٣) المقريزى : اتعاظ، ج٣، ص ١٦٧. ولذا عرفت بالعوفية أيضا .د.أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية، ص ٢٠١.

(٤) السلفية : نسبة إلى السلفى وهو الحافظ صدر الدين أبو الطاهر أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفه الأصبهانى. علم من الأعلام، وكان العلماء يستشدون إليه الرحال من كل حدب وصوب، ويأخذون عنه، ويستمعون إليه، ويتتلمذون عليه، ولد فى أصبهان سنة ٤٧٥هـ. وتلقى علومه بها. ورحل إلى بغداد ومكة والبصرة والكوفة ثم وفد إلى الإسكندرية سنة ٥١١هـ. وعمل بالتدريس فيها فكان أن أنشأ له ابن السلار هذه المدرسة. المناوى الوزارة والوزراء، ص١٠٨.

الفقيه الشافعى، فأكرمه وبنى له هذه المدرسة سنة ٥٤٤هـ[١]. وكان الحافظ السلفى بعد أن وصل الإسكندرية، ٥١١هـ/ ١١١٧م ثم خرج منها إلى الفسطاط ليلتقى بأهل العلم فيها، وبعد أن عاد منها إلى الإسكندرية، استقر بها بقية حياته، وتوفر على إلقاء دروسه فى مساجد المدينة، إلى أن أنشأ له الأمير " على بن السلار " هذه المدرسة. والتى كان لإنشائها رنة فرح كبرى فى الإسكندرية، عبر عنها شعراء المدينة فيما قالوه من شعر. من هذا ما قاله أحد الوراقين من الشعراء السكندريين، وكان وثيق الصلة بالسلفى، ومدحه بأكثر من خمسين قصيدة، وقال فى إحداها يفتخر بهذه المدرسة، ويمدح بانيها مشيدا بذكر السلفى وعلمه.

لله در العـــــادل المترجـــــى ذى العـــزو التأييـــد والنصـــر
أنشـــأها لنـــا مدرســـة مثلهـــا لـــم ينشـئ فـــى دهـــر ولا عصـــر
بغـــداد دار العلـــم لـــم تفخـــر بمثلهـــا قـــط علـــى مصـــر

وكان السلفى هو أستاذ المدرسة ومدرسها، وكان يعاونه فى ذلك عدد من المعيدين، كما كانت تقتضى نظم التعليم فى ذلك العصر[٢].

ومما تجدر الإشارة إليه أن هاتين المدرستين قد لقيتا اهتماما كبيرا من قبل الولاة الذين تعاقبوا على إمارة هذا البلد، بل أن منهم من كان من تلاميذها، والحرصين على حضور مجالسها العلمية، وقد تحدث أحد المؤرخين المحدثين وهو الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال عن تلاميذ هذه المدرسة، وذكر أنهم : " نوعان، نوع نظامى وهم الطلاب الذين يدرسون دراسة يومية منتظمة فيما عدا أيام الجمع. أما النوع الثانى: فكان يشمل الشبان والرجال الكبار من هواة العلم، وغير المتفرغين، وكان هؤلاء التلاميذ نخبة ممتازة من العلماء والشعراء والأدباء، سواء من أهل الإسكندرية أو الوافدين عليها، كما كان من بينهم من كان

(١) المناوى: الوزارة والوزراء، ص ١٦٣: ١٦٤، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص ٢١٩، وقد اختلف فى تاريخ إنشاء هذه المدرسة، وفى وقت إنشائها. وهل تم ومنشئها واليا بالإسكندرية أم وزيرا لكن بعد البحث اتضح أنه أنشأها وهو أميرا على الإسكندرية د.أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية فى مصر، ص ٢٠١: ٢٠٢.

(٢) د. الشيال : أعلام الإسكندرية، ص ١٤٠.

من رجال الحكم بالمدينة كالولاة والقضاة والجنود والشهود "[١] وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى اهتمام حكام الأقاليم المصرية بالعلم، والحرص على حضور مجالسه، وذلك مهما كانت مشاكل وأعباء الحكم الملقاة على عاتقهم. وقد ترتب على إنشاء هاتين المدرستين آثار جليلة من أهمها:-

١- لأول مرة فى تاريخ مصر الإسلامية يعرف هذا النوع من المؤسسات العلمية

٢- اتخذ أهل السنة من هاتين المدرستين السنيتين سلاحا لمقاومة المذهب الشيعى، فضلا عن تقوية المذهب السنى وتثبيته فى نفوس أهل السنة. كما ذهب البعض إلى أن الغرض من إنشائها كان " غرضا سياسيا دينيا، وهو الوقوف فى وجه المذهب الشيعى، ومن ثم القضاء على الدولة الفاطمية، وأن ذلك كان تأثرا بحركة إنشاء المدارس التى قام بها السلاجقة وتبعهم فيها الأتابكة، ثم الأيوبيون فيما بعد، والتى كانت من أهم أغراضها محاربة المذهب الشيعى "[٢].

٣- ازدهار العلوم والآداب، خاصة الإسلامية، حتى يذكر أن العلوم الدينية لم تزدهر بالمدينة إلا بعد إنشاء مدرستيها[٣].

٤- شهدت الإسكندرية على أثر مدرستيها نهضة علمية كبيرة، كانت سمة من سمات المدينة فى العصر الفاطمى.

٥- وفد إلى الإسكندرية عدد كبير من علماء المغرب والأندلس للمشاركة فى حركتها العلمية، حتى أصبحت الإسكندرية ملتقى علماء المغرب والأندلس، والمشرق على السواء.

من هذه الآثار يتضح لنا الدور الفعال الذى قام به حكام الأقاليم فى هذا المجال، الأمر الذى جعل من الإقليم منبع مقاومة سنية، ومركز نهضة علمية وثقافة واسعة النطاق، بل وقبلة يتجه إليها طلاب العلم والمعرفة،كما كان هذا دافعا لمن جاء بعدهم من الولاة للمشاركة فى مجال العلم والمعرفة.

(١) د. الشيال : أعلام الإسكندرية، ص ١٤٤.

(٢) د. المناوى : الوزارة والوزراء، ص ١٠٩.

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها، ص ٥٣٤.

من أشهر علماء الأقاليم :-

كانت الحركة العلمية فى مصر الفاطمية قد اضطرد نموها فى كل نواحيها وألوانها، وتعددت مراكزها على طول البلاد وعرضها وبهذا النشاط العلمى وسعة الأفق، بدأت مصر عهد الزعامة الفكرية للأقطار الإسلامية[١]، هذه الزعامة التى امتدت جذورها للأقاليم المصرية. كالقاهرة حاضرة الخلافة الفاطمية وملتقى العلماء والأدباء، وإلى الإسكندرية مركز الثقافة اليونانية والرومانية القديمة[٢]، وظلت الإسكندرية تحتل مركزها العلمى والثقافى القديم، هذا المركز الذى ازدهر بشكل أكبر فى العصر الفاطمى، وذلك فى شتى العلوم والفنون، من هندسة، وفلسفة وعلوم عقلية، فضلا عن العلوم الدينية، حتى كثر بها العلماء والأدباء والشعراء، سواء أكانوا من أهل الإقليم أو الوافدين إليه [٣]. حتى أصبحت الإسكندرية ثالثة ثلاث مدن اشتهرت بالحركة العلمية والأدبية، وهى القاهرة وقوص الإسكندرية[٤]، وقد أشار ابن جبير فى رحلته إلى هذه النهضة والقائمين عليها[٥].

ومن أمثلة الأقاليم المصرية التى شهدت نهضة علمية وثقافية مزدهرة فى عصر الخلفاء الفاطميين، إقليم " قوص " والذى يذكر بأن الحياة العلمية قد لمعت فيه بشكل كبير، حيث عرف بثرائه الواسع والغزير فى مختلف العلوم، وحفل بنخبة من العلماء الذين كان لهم دور كبير فى انتشار النهضة الثقافية فى جميع بقاع الإقليم. فبرز منه فقهاء وأدباء وشعراء ومحدثون وقراء [٦]. حتى أصبح الإقليم ذا شخصية لامعة مشرقة [٧]، بلغ من ازدهار ازدهار الحركة العلمية به أن أصبح حديث المعاصرين، بل صرحا علميا فى العصور الوسطى[٨].

(١) إبراهيم شعوط : مصر من عهد بناة القاهرة، ص ١٠٧.
(٢) أحمد النجار: الإنتاج الأدبى لمدينة الإسكندرية، ص ٥٩.
(٣) السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، ص ٥٣٣: ٥٣٤.
(٤) أحمد النجار : الإنتاج الأدبى، ص ٥٩.
(٥) انظر ابن جبير: الرحلة، ص ٣٩.
(٦) محمد خليل أحمد هميمى : قوص من الفتح العربى حتى نهاية عصر المماليك، ص ٣٢٥.
(٧) محمد محمود على حسن : قوص مركز إسلامى لصعيد مصر، ص ١٠٦.
(٨) محمد خليل أحمد هميمى : السابق، ص ١٦٩، ١٧٥.

وهناك أيضا "أسوان " التى كانت بمثابة مركز ثقافي إسلامي فى مصر العليا، وبعبارة أخرى مجتمع إسلامى متحضر جديد، ويشاركها فى هذا مدينة قفط، والتى كانت تمتاز وحدها بوسط مثقف متجانس[١].

وما كانت هذه النهضة التى شهدتها الأقاليم المصرية، إلا نتيجة لما حوته الأقاليم المصرية آنذاك من العديد والعديد من العلماء الأجلاء، من رجال العلم والدين والأدب والصلحاء والمرابطين والفقهاء وغيرهم، وممن نعموا بعناية ورعاية رجال الدولة، وخاصة حكام الأقاليم. وقد بلغ من أمر العناية بعلماء الأقاليم أن ورد ذكرهم فى سجلات تقليد بعض حكام الأقاليم. فقد ذكر القلقشندى فى إحدى سجلاته ما أوصى به الخليفة أحد حكام الأقاليم تجاه العلماء القاطنين بالأقاليم. فيقول: "... ومعلوم أن ثغر الإسكندرية– حماه الله– الثغر الرفيع المقدار، الذى هو قرة العين للإسلام، وقذى فى عيون الكفار، ومحلة مما تتطامن له معاقل التوحيد وحصونه، وهو يشتمل على الفقهاء والصلحاء والمرابطين، وأصل الدين على من لم يزل يحفظه ويصونه وإليه تناقل السفار، وهو المقصود من الأقطار..."[٢].

وإذا كان هذا السجل خاصا بإقليم الإسكندرية فإنه يجدر بنا أن نشير إلى بعض العلماء الذين حواهم الثغر والذى كان معقلا لكثير من الفقهاء والأدباء، ويذكر منهم على سبيل المثال: الفقيه المالكى، عبد الوهاب بن توهيب، وعنه ذكر السلفى أنه من أهل السنة مالكى المذهب، إسكندرى الدار، وشعره جيد... وله أكثر من خمسين قصيدة، ومن المقطعات شيء كثير، ويمدح السلفى والمدرسة العادلية قائلا:–

لله در العـادل المـرتـجى ذى العـز والتأييـد والنصر[٣].

كذلك نرى الفقيه المهذب بن الزبير[٤]، حقيقة أنه أسوانى الأصل لكنه استقر دهرا بمدينة الإسكندرية، وخاصة عند ما ولى أمر النظر بهذا الثغر المحروس، وقد قام هذا الفقيه بدور

(١) محمد محمود على حسن : قوص مركز إسلامى لصعيد مصر ، ص ١٠٦.
(٢) القلقشندى: صبح الأعشى، ج١٠، ص ٣٦٣.
(٣) أحمد النجار: الإنتاج الأدبى بمدينة الإسكندرية، ص ٢٣١.
(٤) سيذكر عند الحديث عن علماء أسوان.

كبير فى مساعدة صلاح الدين أثناء وجوده بالإسكندرية، لذا عذبه شاور وأجار عليه إلى أن أمر بضرب رقبته[١].

ومن الفقهاء والشعراء الذين سكنوا مدينة الإسكندرية " موسى بن على السخاوى " الفقيه البليغ، وكان ممن مدحوا القاضى الفاضل، ومن مدائحه فيه قصيدته البائية الجامعة للإحسان وفيها يقول بعد مقدمة غزلية جريا على التقليد القديم:-

المستبد بكل فضل فضله فجنا به المأمول أخضر مخصب

والمسترق حرائر الشيم التى أبدا تصان على الأنام وتحجب[٢]

ومن هؤلاء الفقهاء الشعراء أيضا، يذكر القاضى الفقيه الشاعر المعروف بـ " ابن قيصر " ونقل عن السلفى فى هذا الفقيه قوله: " هو أبو الحسن على بن محمد بن عيسى الأزدى، كان من أهل الأدب والفقه، ويعرف بابن قيصر، وكان كثيرا ما يحضر عنده، وعنه أخذ مقطوعات كثيرة "[٣]. وكما قال صاحب الخريدة:" كان كثير المنظوم "[٤]. وكان بن القيصر من مداحى طلائع بن رزيك ومن شعره فيه قصيدة منها:-

كالرئم حال نفاره والبدر عند كماله والغصن عند بسوقه

ثم يعلق الكاتب على هذا الشعر بأنه يظهر منه أنه لفقيه، وذلك من كثرة الحلف، وضعف الأسلوب، واستعمال بعض ألفاظ الفقه [٥].

وبالإضافة إلى هؤلاء الفقهاء الذين حواهم هذا الثغر، وإن كان منهم الشعراء، إلا أنه وجد بالثغر أيضا مجموعة عظيمة من الشعراء ويذكر منهم على سبيل المثال الشاعر السكندرى

(١) أحمد النجار : السابق، ص ٢٠٤: ٢٠٥.
(٢) أحمد النجار : الإنتاج الأدبى، ص ١١١: ١١٢.
(٣) أحمد النجار: نقلا عن السلفى فى معجمه. انظر الإنتاج الأدبى، ص ١٢٩.
(٤) العماد : الخريدة، ج١، ص ٢٤٥.
(٥) العماد : السابق، ص ١٣٠.

" ابن مكنسه "[١]. وكان فى أيام أمير الجيوش بدر الجمالى[٢]. ويذكر أن أبرز صفات هذا الشاعر أنه جيد الأسلوب محكم فى سهولة ويسر يجرى على طبع، وأنه خفيف الظل، مرح كأنه من شعراء عصرنا الحديث[٣].

ومن الشعراء السكندريين الذين تحدث عنهم صاحب الخريدة " ظافر بن الحداد" ذاكراً " بأن حظه فى الفضل وافر، يدل نظمه على أن أدبه وافر، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر، لولا أنه من مداحى المصرى[٤]، والله له غافر"[٥] واتصل هذا الشاعر بطلائع بن رزيك، وسجل بعض معاركه مع الصليبيين[٦]. ومدح ظافر بن الحداد أحد ولاة مدينة الإسكندرية. وقد ضاق خاتمة عليه، وضاق بسببه فيقول:-

قصر عن أوصافك العالم ... وكثر النـاثر والنـاظم
من يكن البحر له راحة ... يضيق عن خنصره الخاتم

ويمدحه بآخرين قائلا:-

رأيت ببابك هذا المنيف ... مسابكا فأدركنى بعض شك
وفكر فيما رأى خاطرى ... فقلت البحار مكان الشبك[٧].

(١) ابن مكنسه : وعنه قال أحمد النجار. نقلا عن صاحب الرسالة المصرية. وهو أبو الطاهر إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسه، وهو شاعر كثير التصوف قليل التكلف، جد القريض وهزله، وأصاب بسهم رقيقه وجزله، أحمد النجار : الإنتاج الأدبى، ص ٩١، نقلا عن الرسالة المصرية، ص ٤٣.
(٢) العماد : الخريدة ،ج٢، ص ٢١٢.
(٣) أحمد النجار : الإنتاج الأدبى، ص ٩٢.
(٤) يقصد به الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله.
(٥) العماد : الخريدة ،ج٢، ص ٣.
(٦) أحمد النجار : الإنتاج الأدبى، ص ٩٣: ٩٤.
(٧) العماد : السابق، ص ١٥.

obeikandi.com

ومن الشعراء السكندريين المادحين " أبو الفتوح الأعز نصر الله المعروف بابن قلاقس الشاعر السكندرى "، وهو من الشعراء المتكسبين المحترفين، الواقفين على كل باب يستجدون، أو يستكفون[١].

كانت هذه نخبة من أشهر العلماء والأدباء الذين حواهم ثغر الإسكندرية، والذين تمتعوا بعطف وعناية حكام الأقاليم الأمر الذى حدا بأحدهم أن مدح أمير الثغر، ولولا تقريب هذا الأمير للشعراء وعطفه عليهم ما كان هذا المديح المبالغ فيه.

كانت هذه أمثلة لنصيب بعض أقاليم الوجه البحرى، من الناحية العلمية، وما ضم من علماء وأدباء. فإن الأمر بالنسبة للوجه القبلى لم يكن ليقل عن هذا بل ربما فاقه، وقد أورد الأدفوى فى طالعه أسماء العديد من العلماء ممن شهدتهم بلاد الصعيد والذين برعوا فى كافة مجالات العلم والأدب، حيث ظهر فيها الفقهاء، و المحدثون، والمتصوفة، والنحويون، والأدباء، والشعراء، وكذلك الطب، والعلوم القديمة.

ففى الفقه مثلا ظهر إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الأسوانى وكان حاكما بقوص وعملها فى سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة، وهو جد الرشيد المهذب بن الزبير، وهو الذى رثاه ابن النضر بقصيدته المشهورة[٢]. ومنها :-

ولقد وقفت على ربوعك باكيا ... وبها الذى بى من جوى وتوجع
فحمدت طرفى كيف انجدنى بها ... وذممت قلبى كيف لم يتقطع[٣]

وهناك أيضا " الحسن بن حيدرة بن على بن جعفر بن الغمر"، كان حاكما بقوص وعملها فى المائة الخامسة. وبنو الغمر من إسنا وبقوص أيضا بنو الغمر[٤]. ومنهم على بن

(١) أحمد النجار : الإنتاج الأدبى، ص ٩٥، وما بعدها.
(٢) الأدفوى : الطالع، ص ٦٧.
(٣) الأدفوى : الطلع، ص ٤١١: ٤١٢.
(٤) الأدفوى : الطالع، ص ١٩٢.

الزبير الأسوانى، والد القاضى الرشيد أحمد [١]. ومنهم أيضا محمد بن عبد الوارث بن محمد الأرمنتى الفقيه الشافعى المعروف بابن الأزرق[٢].

وفى مجال الحديث برز أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر أبو جعفر القفطى، وذكر عنه أنه روى عن النسائى وغيره، وسمع منه ابن الطحان، وذكر أنه توفى فى شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة[٣]. وهناك أيضا الحسين بن إبراهيم بن جابر على الأدفوى المقرى الفرائضى المعروف بابن الزمزام "، وذكر عنه أنه سمع بمصر، ودخل دمشق وحدث بها وذكر أنه توفى لثلاث خلون من شوال سنة ثمان وستين وثلاثمائة، وحدث عنه الكثير[٤]. كذلك القاضى " إبراهيم بن أحمد بن على بن أحمد بن الغمر" ثقة الخلافة أبو المناقب سراج الدين القوصى كان عالما أديبا فاضلا[٥]. ومنهم أيضا الحسن بن على بن الحسن الأسوانى[٦]، ومحمد بن عتيق الأسوانى[٧]، محمد بن هلال الشبى الأسوانى[٨]، محمد بن يوسف بن هلال الأسوانى[٩]، وناصر بن عرفات القوصى[١٠].

أما فى علم التفسير فقد ظهر المفسر الجليل " محمد بن على بن أحمد بن محمد أبو بكر الأدفوى " العالم الزاهد المقرئ المفسر النحوى، ذكر فى طبقات القراء أنه انفرد بالإمامة فى دهره فى قراءة نافع، مع سعة علمه وبراعته، ومن كتبه كتاب " الاستغناء فى التفسير "، وذكر الأدفوى أنه وقف له على مجلدة كبيرة فى النحو، وكان من العلماء الصالحين، ممن يعتقد ببركته ويزار قبره، ويقال أن الدعاء عنده مستجاب، وتوفى بمصر يوم

(١) الأدفوى : الطالع، ص ٣٦٤.
(٢) الأدفوى : الطالع، ص ٥٤٣: ٥٤٤.
(٣) الأدفوى : الطالع، ص ٧٣.
(٤) الأدفوى : السابق، ص ٢١٩: ٢٢٠.
(٥) نفسه : ص ٢٣٥: ٢٣٧.
(٦) نفسه : ص ٢٠٦: ٢٠٧.
(٧) نفسه : ص ٥٥١: ٥٥٢.
(٨) نفسه : ص ٦٣٧: ٦٣٨.
(٩) نفسه : ص ٦٤٣.
(١٠) نفسه : ص ٦٧١: ٦٧٢.

الخميس لسبع بقين من شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، وله ابن يسمى عبد الرحمن ذكره ياقوت فى معجمه[١].

وأما عن التصوف فمن أشهر أعلامه الذين حواهم الوجه القبلى أواخر العصر الفاطمى، وأوائل العصر الأيوبى، الشيخ " العارف على بن حميد بن إسماعيل بن يوسف أبو الحسن بن الصباغ القوصى " الوالى الفقيه والإمام الحجة. ولد ونشأ فى مدينة قوص فى بداية عمره، وصحب الشيخ عبد الرحيم القنائى، وأخذ عنه وتخرج عليه[٢].

أما فى النحو والأدب فقد ظهر " على بن محمد بن النضر العالم الأديب النحوى، ذكره العماد فى الخريدة. ومن شعره :-

يا نفس صبرا واحتسابا إنها ... غمرات أيام تمر وتنجلى
فى الله هلكك إن هلكت حميدة ... وعليه أجرك فاصبرى وتوكلى

وذكر أنه أحد عمال الديار المصرية فى زمن الأفضل بن بدر الجمالى، وكان متصرفا فى علوم كثيرة[٣]. وهناك أيضا " شيث ابن إبراهيم بن محمد بن حيدرة بن الحاج الفقيه النحوى القفطى " كان قيما بالعربية وله فيها تصانيف منها " المختصر " و " المعتصر من المختصر " وذكر الأدفوى أنه رآه، وذكر عنه أيضا " أنه فقيه نحوى زاهد ولد بقفط ثم انتقل بعد سنين إلقنا " وذكر أنه رحل إلى شاور، واشتغل بتعليم أولاده، وأنشد له قوله رحمه الله:-

هى الدنيا إذا اكتملت ... وطاب نعيمها قلت
فلا تفرح بلذاتها ... فباللذات قد شغلت
وكن منها على حذر ... وخف منها إذا اعتدلت

وتوفى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة[٤].

(١) الأدفوى : الطالع، ص ٥٥٣: ٥٥٥.
(٢) الأدفوى : الطالع، ص ٣٨٣.
(٣) الأدفوى : الطالع، ص ٤٠٩: ٤١٤.
(٤)الأدفوى : الطالع، ص ٢٦٣: ٢٦٥.

أما فى مجال الشعر فقد ظهر فى هذا الإقليم مجموعة كبيرة من الشعراء، وقد أورد الأدفوى فى طالعه أسماء العديد منهم " الحسن بن أبى الحسن على بن إبراهيم بن محمد ابن الحسين بن الزبير المهذب الأسوانى " وذكر أنه لم يكن بمصر أشعر منه. ومن شعره فى قصيدة مدح بها الصالح ابن رزيك:

أفارس المسلمين اسمع ولا سمعت ... عداك غير حرير البيض فى القلل
مقال ناء غريب الدار قد عدم الأنصار ... لولاك لم ينطق ولم يقل[1]

ومنهم " أبو إسحاق بن شعيب الأسوانى " الأديب ذكره ابن عرام فى جملة من شعره فى بنى الكنز، وذكر له من مرتبة رثى بها بعض بنى الكنز فى سنة ثمان وخمسمائة منها

أأبا المكارم أنه لو لم يكن ... لك فى الورى نجل أغرهمام
لحكمت بعدك أن أركان العلا انـ ... ـهدمت أشى وتضعضع الإسلام[2]

ومنهم "على بن أحمد بن عرام الأسوانى"[3]، "محمد بن رائق أبو عبد الله الأسوانى"[4]، و"سهل بن حسن الإسنائى"[5]،" محمد بن على بن الغمر الإسنائى"[6]،و"على الإسنائى"[6]،و"على بن محمد بن أبو الحسن المعروف بابن البرقى القوصى "[7]، و"محمد و"محمد بن على بن الغمر أنجب الدين الهاشمى"[8]، و "نصير الأدفوى"[9]، و" يحيى يوسف بن تحرير"[10].

(١) وعنه بالتفصيل انظر : الطالع، ص ١٩٤: ٢٠٣.
(٢) الطالع، ص ٧٣٦.
(٣) الأدفوى : الطالع، ص ٣٧١: ٣٧٣.
(٤) نفسه، ص ٥٢٠.
(٥) نفسه، ص ٢٥٧: ٢٥٩.
(٦) نفسه، ص ٥٥٧: ٥٥٨.
(٧) نفسه، ص ٤٠٥: ٤٠٧.
(٨) نفسه، ص ٥٦٤: ٥٦٧.
(٩) نفسه، ص ٧١٢.
(١٠) نفسه، ص ٦٨١: ٦٨٤.

وفى مجال الطب وجد بالإقليم مجموعة من الأطباء من أشهرهم " هبة الله بن صدقة بن عبد الله بن منصور بن الحسن بن هبة الله بن حطبة " عرف بابن الزبير أبو القاسم بن أبى معروف الأسوانى المولد القاهرى الدار، الشافعى، العدل الطبيب، كان من عدول مصر ونبهائها، مع الثقة وحسن وكان قيما فى فن الطب، ولد بأسوان قبل الخمسين وخمسمائة، وحكى أن العضد قال له " عندى جارية تحتاج إلى الفصد، وهى لا تحتمل أن ترى الحديد، وقد قلقت من أمرها " قال " فقلت عن إذن مولانا أحتال فى ذلك " قال: " وقد أذنت لك " فخبأت مبضعا فى فمى لطيفا وقلت لا عليك أحس نبض العروق فحسبت ذلك، ثم أومأت لتقبيل يدها. فقصت العروق وهى لا تشعر، والمبضع فى فمى على حاله، فأعجب ذلك العاضد، وأمر لى بخلعه، وكنت إذ ذاك مراهقا، لم أبلغ. وذكر أنه توفى سنة اثنتين وأربعين وستمائة، وأنه تولى على الأطباء بالديار المصرية[١].

ومنهم أيضا " مبادر بن نجيب بن مربح بن حسين بن جعفر بن أبى الفرج بن على بن أحمد بن على بن هارون بن يحيى ابن عبد الباقى الغسانى الأسوانى " الفقيه الطبيب توفى ببلده فى يوم الأحد حادى عشر شعبان سنة ست وسبعين و خمسمائة، ودفن بمقبرة الربط وذكر صاحب الطالع أنه قرأ نسبه ووفاته من لوح بالكوفى على قبره[٢].

وبالإضافة إلى هذا كله ظهر بالمنطقة علماء برعوا فى العلوم القديمة ومنهم " صخر بن وائل الفضالى الأدفوى " ينعت بالشجاع، وكان فاضلا عالما بالعلوم القديمة، وكان فى المائة السادسة[٣].

كانت هذه مجموعة من أشهر العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والأطباء ممن حواهم هذا الإقليم فى عهد الخلفاء الفاطميين، وما كان هذا إلا نتيجة لتشجيع أمراء هذه المنطقة وعطفهم، ورعايتهم لهؤلاء، الذين وجدوا المناخ المناسب لإبراز مواهبهم العلمية والأدبية، دون تحرز أو خوف من سطوة حاكم ، أو سلطان وأمير، بل بالعكس لقوا كل

(١) الأدفوى : الطالع، ص ٦٩٠: ٦٩١.
(٢) الأدفوى : الطالع، ص ٤٧٤.
(٣) نفسه، ص ٢٧٠.

العناية والتقدير والاحترام، بل ومنحوا العطايا والهبات التى أفاضت المصادر فى وصفها وتقديرها.

العلماء الوافدين إلى الإقليم :-

ونظرا لما لاقاه أهل العلم والأدب فى الأقاليم المصرية، من قبل رجال الدولة والحكم بها، وكذلك الرعاية والتشجيع، وفد على البلاد الكثير من العلماء، ولعل أبرز شخصية علمية فى تلك الفترة. القضاعى الفقيه الشافعى، والمؤرخ المصرى الذى لاقى الرعاية والتشجيع برغم مخالفته لمذهب الدولة، وقد تولى القضاء، وعمل فى ديوان الإنشاء، واتخذه الوزير الجرجرائى ثم اليازورى كاتبا لإنشائه وعلاماته، وقد ألف القضاعى كثيرا من الكتب لعل من أهمها " خطط مصر " والذى اعتمد عليه المقريزى فى كتابه " الخطط "[١].

وممن وفد على مصر، وشاع ذكره وانتشر : " القاضى الأجل الأفضل أبى على عبد الرحيم بن على البيسانى" كان شافعى المذهب تقلد أبوه قضاء بيسان، وهى بلدة من بلاد الأردن، بين حوران وفلسطين، ومن هذا اللفظ اشتق اسمه البيسانى، قدم الإسكندرية وخدم فى ديوانها، ثم استقدم إلى القاهرة للخدمة فى ديوان الإنشاء، أيام الخليفة العاضد، وترقى حتى صار صاحب هذا الديوان، ولما قدم أسد الدين شيركوه مصر اتخذه كاتبا له، فلما مات، ووزر صلاح الدين استخلص البيسانى واستعان به فى إزالة الدولة الفاطمية، ثم جعله وزيرا له ومشيرا وتوفى سنة ٥٩٦هـ[٢].

وقد وفد على الإسكندرية وشاع ذكره أيضا وانتشر الفقيه المالكى الذى غلب على أهل الإسكندرية، تأثرا بالوافدين من المغرب، " أبو بكر الطرطوشى " وهو " محمد بن الوليد النهرى الأندلسى نزيل الإسكندرية، وأحد الأئمة الكبار، رحل وسمع ببغداد، وكان إماما عالما زاهدا ورعا متقشفا له تصانيف كثيرة منها " سراج الملوك " كما كانت له أشعار مأثورة[٣].

ومن أشهر الوافدين على مصر آنذاك ، طمعا فى كرم وجود رجال الدولة وإظهارا لمواهبهم العلمية والأدبية " أمية بن أبى الصلت " ولقد جاء أمية من بلاد المغرب، ويبدو أنه

(١) د. المناوى : الوزارة والوزراء، ص ١١٣.
(٢) د. المناوى : الوزارة والوزراء، ص ١٢٤.
(٣) أحمد النجار: الإنتاج الأدبى، ص ٦٤.

نال حظوة كبيرة بمصر لأول مرة، لكنه ما لبث أن اضطر للرحيل سنة ٥٠٦هـ بعد أن ضاعت مكانته، فألف الرسالة المصرية، وهاجم فيها مصر والمصريين، إلا أنه ذكر كثيرا من أدباء مصر وشعرائها الذين عرفهم[١].

ومن الأمثلة البارزة فى هذا المجال الشاعر" عمارة اليمنى " الذى وفد إلى مصر فى وزارة الصالح طلائع بن رزيك، ولقى فيها كل العناية والرعاية والكرم من قبل رجال الدولة وأمرائها، كما نجح فى تكوين علاقات وطيدة مع الكثير من حكام الأقاليم المصرية، الذين أوردهم فى مؤلفه، وذكر أمثلة لعطاياهم، ومنحهم له، وخلعهم عليه.

ومنهم أيضا عالم متصوف يعد من أشهر علماء الصوفية الذين عاشوا بإقليم قوص، فى العصر الفاطمى، العارف العالم " عبد الرحيم القنائى " وهو " عبد الرحيم بن أحمد بن حجون القنائى " المغربى المولد والنشأة القنائى الدار والوفاة، ولد فى ترغانة من عمل سبتة " بالمغرب سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م، بعد أن وفدت قبيلته العربية فى عداد القبائل من الحجاز من أرض المشرق، واستوطنت المغرب وأقامت هناك أثناء الفتح العربى الإسلامى، ووصل هو من المغرب، وأقام بمكة سنين، على ما حكاه بعضهم، ثم قدم قنا، من عمل قوص، فأقام بها سنين كثيرة إلى حين وفاته، وتزوج بها وولد له بها أولاد. وأهل بلاده متفقون على تجربة الدعاء عند قبره[٢].

وكذلك " أبو إسحاق السديد بن سماقه بن عمرو الأسعودى " المتوفى سنة ٦٠٢هـ/١٢١٠م، وقد كان عالما صالحا سمع الحديث ببغداد، وحدث بمصر والإسكندرية وغيرها وتولى قضاء دمياط، وقضاء بلبيس[٣]. و"ذو النون بن سهل الأسنائى"، ونقل الأدفوى عن السلفى أنه هو الحافظ الثقة، والعلاقة الكبير " أبو طاهر أحمد بن محمد الأصبهانى الحروانى، نسبة إلى حروانى محله بأصبهان [٤]. ومنهم " محمد بن عبد الرحمن ابن إقبال

(١) د. المناوى : الوزارة والوزراء، ص ١١٨.
(٢) الأدفوى : الطالع، ص ٢٩٧: ٣٠٣.
(٣) محمود محمود حسن أحمد : الإسكندرية فى العصر الفاطمى، ص ٢٥٠.
(٤) الأدفوى : الطالع، ص ٢٤٤، حاشية ٧.

المغربى المقرئ، قرأ القراءات على العديد من العلماء، ومولده بالمغرب سنة ٤٩٩هـ، وقدم قوص واستوطنها، إلى حين وفاته بها سنة إحدى وستمائة[١].

ومما تجدر ملاحظته أن الأمر لم يتوقف بالنسبة للعلماء والأدباء الوافدين إلى مصر على الرجال فقط، بل تعدى إلى النساء ومنهن، شاعرة حفظت كتب التاريخ اسمها، وقد كانت تسكن الإسكندرية وهى: " تقين الصورية بنت أب الفرج غيث " الكاتبة الفاصلة الشاعرة، وقد روى عنها فى الحنين إلى الأوطان:-

هاجت وساوس شوقى نحو أوطانى ... وبان عنى اصطباري بعد سلوانى
وبت أرعى السها والليل معتكر ... والدمع منسحم من سحب أجفانى
وعاتبت مقلتى طيفا ألم بها ... أهكذا فعل خلان بخلان[٢]

كانت هذه أمثلة قليلة لبعض العلماء والأدباء الذين وفدوا على مصر من مختلف الأنحاء والأقطار، طمعا فى عطف ورعاية رجال الدولة بها، وخاصة حكام الأقاليم ، الذين أحاطوا هؤلاء بالعناية والتكريم، وأغدقوا عليهم المنح ، وما ذلك إلا حبا للعلم والأدب وأهلهما.

جهود حكام الأقاليم فى البناء والتعمير :-

إذا كان حكام الأقاليم قد عملوا على التقرب من الرعية وحمايتهم، ورعاية مصالحهم بشكل مباشر، فإنهم عملوا كذلك على توفير سبل الراحة والدعة لهم، وذلك من خلال ما أقاموا من منشآت ومبان بقيت مخلدة لذكرهم ودليلا على ما بذلوا من مجهودات فى هذا المجال، من ذلك ما فعله الأمير مؤتمن الخلافة أمير الإسكندرية، الذى جدد فى إمارته عمارة سور الإسكندرية[٣]. وعن هذا الأمير يقول أحد المؤرخين المحدثين : " حظيت مدينة الإسكندرية بوال من أنشط ولاتها وأكثرهم ولعا بالبناء وكلفا بالإصلاح، ذلك هو المؤتمن

(١) الأدفوى : الطالع، ص ٥٢٩.
(٢) أحمد النجار: الإنتاج الأدبى، ص ١٨٦.
(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا، ج٣، ص ١٠٦.

سلطان الملوك نظام الدين أبو تراب حيدرة الذى لم يتردد فى إصلاح سور الإسكندرية، وتجديد ما تهدم منه بالبنيان "[١].

أما عن الأبراج فإلى أبى الأشبال ضرغام أحد أمراء الإسكندرية ينسب بناء برج، عرف ببرج ضرغام، عند باب البحر فى سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦١م والظاهر أن هذا البرج كان المقصود به تمكين الدفاع فى موضع من أكثر المواضع تعرضا لطروق العدو، ونزوله. ولا نستبعد أن يكون هذا البرج قد أدى خدمة كبيرة للدفاع السكندري، إبان حصار الفرنج. وشاور لصلاح الدين سنة ٥٦٣هـ /١١٦٧م. وفى حملة ويلم الثانى صاحب صقلية على الإسكندرية سنة ٥٦٩هـ /١١٧٣م. وقد أحرق هذا البرج فى عزوة القبارصة سنة ٧٦٧هـ[٢].

ومن منشآتهم الهامة أيضا، والتى قصدوا من ورائها التقرب إلى الرعية، وتوفير متطلباتهم (المساجد). وقد حظيت الأقاليم المصرية فى عصر الخلفاء الفاطميين فى مصر بمجموعة من المساجد الفخمة، والتى ينسب إنشاؤها أو حتى المساعدة على الإنشاء إلى حكام الأقاليم[٣].

ولم يتوقف الأمر على المبانى المتصلة بالمسلمين، بل أن هناك أمراء مسلمين قاموا بعمارة مبانى تابعة لأهل الذمة، من ذلك والى القاهرة الذى عمر إحدى البيع المسيحية بل واهتم بتأثيثها[٤]. هذا بالإضافة إلى ما قام به بعض حكام الأقاليم ممن ينسبون إلى أهل الذمة، والذين عملوا كل ما فى وسعهم لخدمة أهل ملتهم، حتى أصبح كل رئيس من ذويهم يبنى كنيسة بجوار بيته، هذا فضلا عن الأديرة[٥]. كانت هذه بعض أمثلة لما قام به حكام الأقاليم من إنشاءات ومبان. والتى يستدل منها على مدى ما قدم هؤلاء من خدمات وأعمال خدمة للرعية، ورعاية لمصالحهم، والأهم من ذلك التقرب بهذه الأعمال إلى الله عز وجل.

(١) د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، ص ٢١٣: ٢١٤.
(٢) د. السيد عبد العزيز سالم : السابق، ص ٢١٤.
(٣) انظر دور حكام الأقاليم فى الحياة العلمية ص (إنشاء المؤسسة العلمية) ، ص ٢٩٠: ٢٩١.
(٤) ابن المقفع : تاريخ البطاركة، ج٢، ص ٥٧: ٥٨.
(٥) أبو صالح الأرمنى : تاريخه، ص ١٨.